



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان -

مليحة مغنية



قسم اللغة العربية وآدابها



مذكرة لنيل شهادة الماستر لغة وأدب عربي تخصص دراسات أدبية

شعر المديح النبوي في المغرب العربي في عصر الموحدين

- تحت إشراف الدكتور:

➤ عبد القادر بوشيبة

- من إعداد الطالب:

➤ يوسف لحر

لجنة المناقشة		
رئيسها	جامعة تلمسان	د: إبراهيم مناد
مقرها ومقررا	جامعة تلمسان	د: عبد القادر بوشيبة
مناقشها	جامعة تلمسان	د: محمد الصمد عزوزي

السنة الجامعية: 2016/2015

شكر وقدر

﴿ ليس الشكر كلمات يخطها القلب، او ينطق به اللسان،
إنما هو ما تكنه القلوب من طيبة وذكر ووفاء، فكل شكر وحمد
فله أوفاه وانتاه وأحمله وأحناه، له الحمد في الأولى والآخرة،
﴿ ما بنا من نعمة فمن فيض جوده وبحر كرمه.

﴿ إلى الذي نقول له بشراك قول الرسول صلى الله عليه وسلم: إن الله
وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في جحرها
وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير.

﴿ لمضرة الأستاذ عبد القادر بوشيبة الذي تفضل بإشرافه وبذل نصحه الصادق
وأرائه السديدة فكانت نبراسا محتذى لهذا العمل حتى استوى على سوقه .
﴿ كما نشكر الأساتذة المناقبين على قبولهم هذه الدعوة لمناقشة
هذا العمل المتواضع وتكريمهم بمناة قراءة البحث وتصويبه.

﴿ ولا يفوتنا في الأخير أن نشكر كل من ساهم في إنجاز هذا
العمل سواء من قريب أو من بعيد



شكرًا

أهدي هذا العمل الجد متواضع والذي لا أدمي له كمالاً ولا سلامة،
وكل أمني أن يحقق الفائدة المرجوة إلى سيد الخلق أجمعين وإمام
المرسلين سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم.
إلى التي جعل الله الجنة تحت قدميها، والتي برؤيتها تنجلي الظلمات
وتصون الصعاب، إلى ينبوع الرحمة والصدر العنون "أمي الحبيبة"
حفظها الله وأكرمها بالجنة إن شاء الله.
إلى الذي فتح لي الطريق وعلمني سبل الحياة لأضي قدما، وسعى لا
يكل إلى تربيته وتعليمي "أبي العزيز" حفظه الله وأكرمه بالجنة إن
شاء الله.
إلى من قاسموني أحزاني وأفراحني، وكانوا لي قدوة ونبراسا في
الحياة "إخوتي"
إلى كل الأصدقاء والزلاء الذين وقفوا معي لحظات الصعاب
وساعدوني، ولو بكلمة رفعت من معنوياتي.
إلى جميع أساتذة اللغة والأدب العربي.
إلى خريجي قسم اللغة والأدب العربي، دفعة 2015-2016.

الحمد لله السميع العليم، والصلاة والسلام على النبي المصطفى الكريم، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم على الصراط القويم، وبعد:

يشكل التراث بصفة عامة عنصرا مهما في معرفة ماضي الشعوب وحاضرها ومستقبلها وخاصة إذا تعلق الأمر بالإبداع لأنه أصدق وأعمق تعبير في الكشف عن الخلفيات الفكرية الأساسية للشعوب، والسيرورات الثقافية للأمم، وتأتي مرتبة الشعر في مراحل متقدمة من سلم الإبداع في هذا المجال لما يحمله من خلجات نفسية وشحنات عاطفية وقيم روحية يتعدى مفعولها الإطار الشخصي، ويخترق الحدود الزمانية والمكانية ولذلك فإن مستوى المعارف الأدبية، والشعر على وجه الخصوص يعتبر عنصرا جوهريا في الثراء الحضاري لأي أمة من الأمم أو أي شعب من الشعوب، ولعل قول أسلافنا "الشعر ديوان العرب" يندرج في هذا السياق ويجعل رعايته وحفظه من الضياع ضرورة أخلاقية وواجبا حضاريا.

والمعلوم أن تراثنا المغربي مليء بهذا الشعر الذي حفظ لأمتنا حضارتها وقيمها وأحيا أمجادها وخلد ماضيها وأزهى حاضرها، خاصة ذلك الشعر الذي ساهم في نشر الدعوة الإسلامية ورفع كلمة الحق والدين، وشحذ جيوش قوافيه للدفاع عن رسولنا الكريم، والتعريف بشخصيته العظيمة وأخلاقه الكريمة.

من هذا المنطلق أردت أن أقدم تصورا ولو بسيطا عن هذا الغرض الشعري، الذي مدح سيد الخلق، محمد صلى الله عليه وسلم وعرف بمعجزاته وصفاته ومناقبه الحميدة وقد وجدت أن العصر الذي ازدهر فيه هذا الغرض الشعري هو عصر الموحدين، فلم يبقى شاعر في هذا العصر إلا ونظم في هذا الغرض، فارتأيت أن يكون موضوع بحثي هو: "شعر المديح النبوي في المغرب العربي في عصر الموحدين".

ولعل أول دافع لاختياري هذا الموضوع نابع من الحب الخالص الذي لا تشوبه أي شكوك ولا يمكن الحط من قدر حبنا لشخص النبي صلى الله عليه وسلم، بخاصة وأن كل من أحب شخصه تفضل بمدحه، فكان المديح النبوي سمة العصور منذ ميلاده صلى الله عليه وسلم. كما أن الانتماء إلى هذا الوطن الإسلامي يعني، الوقوف وسط جبهة الصراع الفكري والحضاري الذي احتدم في هذا

العصر نتيجة تكالب الغرب على العرب ومحاولتهم طمس معالم الدين الإسلامي، وتشويه صورة النبي صلى الله عليه وسلم، والواجب يحتم علينا أن يكون لنا موقف اتجاه الغرب التزاما بالمبادئ السمحة.

ودفاعا عن شخص الرسول صلى الله عليه وسلم، كما أن عصر الموحدين يعد عصر المحنة الكبرى ففيه عاش المغرب والأندلس مرحلة حاسمة في مراحل الصراع بين المسلمين والنصارى، فمآل أبناء هذه الرقعة إلى الشعر الديني عامة، والشعر النبوي خاصة، لاستنهاض الهمم وتحبيب الجهاد تأسيا بالرسول صلى الله عليه وسلم، كذلك مما شديني لهذا الموضوع خضوع المغرب العربي في تلك الحقبة لحكم الموحدين الذين كانوا على حظ وافر من الثقافة العربية الأصلية، وكان هذا كافيا لازدهار الأدب في تلك الفترة، زد على ذلك الشعراء الكبار الذين أزهوا هذا العصر أمثال: ابن الجنان، وابن جبير، ومالك بن المرحل. كما أن الدراسات التي سبقت لم تشتغل على هذا العصر بالذات وهو عصر ازدهار هذا الغرض الشعري، من هذه الدراسات: "بناء القصيدة المولدية في المغرب الإسلامي" بحث مقدم لنيل درجة دكتوراه الدولة في الأدب القديم، إعداد الطالب زلاقي إشراف الدكتور الربيعي بن سلامة، و"قصيدة المديح النبوي بالمغرب الأوسط في القرنين الثامن والتسع الهجريين" بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في الأدب المغربي القديم، إعداد الطالبة صونيا بو عبد الله، إشراف الدكتور علي عالية.

ولكن قبل أن أخطو خطوة في بحثي هذا واجهتني بعض الأسئلة، لعل منها: ما الأسباب التي دفعت إلى انتشار شعر المديح النبوي في هذا العصر بالذات؟ ومن هم أهم شعرائه؟ وأين كانت بداياته الأولى؟ وهل حافظ شعراء هذا العصر على القالب الأول بموضوعاته أم غيروا في هذا القالب؟

كل هذه التساؤلات كانت الأساس الذي انطلقت منه لتحديد أهداف هذا البحث والتي

لخصتها فيما يلي:

- إن غاية ما نصبوا إليه هو دراسة موضوع المديح النبوي كتجربة شعورية صادقة أم مفتعلة
- تذكير الأمة بنبيها المصطفى صلى الله عليه وسلم، وتبيان فضله ومقامه الكريم
- إبراز الموروث الديني المتمثل في التراث الإسلامي الذي يتم تجسيده من خلال المديح النبوي الذي يعتبر لون من ألوان التعبير الفني.

ووفقا لما اقتضاه البحث وطبيعة الموضوع وتحقيقا للأهداف قسمت بحثي إلى مدخل وفصلين إستفحتهم بمقدمة، وأجملت ما جاء فيهم بخاتمة.

ولقد جعلت المدخل للحركة الشعرية في عصر الموحدين، فتحدثت عن أهم الإغراض لشعرية، التي طرقها الشعراء في هذا العصر وأجادوا النظم فيها.

أما الفصل الأول فتناولت فيه الجانب المعرفي التاريخي لغرض المديح النبوي، ضمنه في ثلاثة مباحث، في المبحث الأول تعرضت لمفهوم المديح النبوي لغة واصطلاحا، أما المبحث الثاني فجعلته لنشأة هذا الغرض وتطوره حتى عصر الموحدين، ثم استعرضت في المبحث الثالث أهم الموضوعات التي طرقها الشعراء في قصائدهم النبوية.

وكان الفصل الثاني للتنقيب عن الخصائص الأسلوبية والجمالية، لشعر المديح النبوي في هذا العصر قسمته هو الآخر إلى ثلاثة مباحث، درست لغة القصائد النبوية، بألفاظها وأساليبها في المبحث الأول، وجعلت المبحث الثاني للصورة الشعرية أما المبحث الثالث فكان للبنية الإيقاعية، التي تجلت في الوزن والقافية والروي. وأوجزت ما توصلت إليها من نتائج في خاتمة، انتهيت إليها من خلال البحث.

وقد اقتضت هذه الدراسة الاستعانة بالمنهج التاريخي، من أجل تتبع تاريخ هذا الغرض الشعري، والمنهج الوصفي لاستقراء القصائد النبوية وإبراز خصائصها الفنية، وقد اعترضتني أثناء البحث صعوبات كادت تحيلني عن تحقيق هدفي، لا أقول مادية ما تعلق بالمادة العلمية أو الكتب بل على العكس وجدت كل المساعدة من أستاذي المشرف منذ البداية، فقد سهل علي الأمور بتفادي عناء البحث، لكن ما علي ذكره هو الخوف من الفشل وعدم إعطاء الموضوع حقه وقدره من الاهتمام، فكان هذا عائقا لإنهاء البحث في أوانه.

ومن الطبيعي أن يعتمد كل باحث على مصادر ومراجع متعلقة بموضوع بحثه، تكون له سندا وسراجا ينيير له درب بحثه، ومن المصادر والمراجع التي دعمتني بالمادة العلمية، نفع الطيب للمقري، والمدائح النبوية في الأدب العربي لزكي مبارك، والإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب، وأزهار الرياض للمقري، بالإضافة إلى مصادر أخرى.

و في الأخير أتقدم بخالص الشكر، وعظيم الامتنان ووافر العرفان لأستاذي الجليل، الدكتور عبد القادر بوشيبة على تواضعه وقبوله، الإشراف على هذه المذكرة وعلى ما أسداه إلى من سابغ العون والمساعدة، فجزاه الله عني خير جزاء.

كما أتقدم بالشكر إلى كل من قدم لي يد العون والمساعدة مادية كانت أو معنوية وما هذه إلا محاولة دراسية من مبتدئ فإن أصبت فبعون الله وتوفيقه وكرمه، وإن أخطأت فمن نفسي.

يوسفه لخمير

مغنية: في: 2016/05/25

ما يميز عصر الموحدين¹ عن غيره من العصور السابقة، هو موقف السلطة من النشاطات الفكرية والعلمية والأدبية، أعطيت الحرية لكل صوت يخدم الإنسان والدين ما عدا ما يخالف أو يعارض مبادئ التوحيد التي تعتمدها نظريتهم، ويعود ذلك إلى ثقافة القادة ابتداء من مؤسسة دولتهم ابن تومرت، وتلاميذه الذين تولوا السلطة من بعده، وتنويرهم بشتى العلوم والآداب²، فقد أوجد الموحدون المدارس والمعاهد العلمية التي يتلقى فيها الطلبة مختلف العلوم والمعارف الشائعة في ذلك العصر، حيث يجد الطالب كل ما يحتاجه من كتب ومراجع.

فهذا عبد المؤمن بن علي³، كان شديد الإيثار لأهل العلم، كثير الإحسان إليهم يدعوهم إلى الكون بجواره، ويقربهم منه، ويجري عليهم الأرزاق الواسعة ويظهر التنويه بهم والإعظام لهم، ولم يكن ابنه أقل منه اهتماما بالعلم وأهله، فنعمت الأندلس في كنفه بالاستقرار والهدوء⁴، نشطت فيها حركة العمران، وازدهرت آفاق الفن والعلم، ولم يكن له في الحروب والحفلات أهمية سوى القضاء على الفتن، فتحولت أيامه إلى أعياد وأعراس ومواسم ترف ورزق.

كما كان لهذه الظروف التي عاشها المجتمع الموحد تأثير وانعكاس على عملية الإبداع حيث لمعت ونبغت نجوم في الأدب والفلسفة، كابن طفيل⁵ وابن رشد، ونشطت الحركة الشعرية مما أدى إلى بروز شعراء نهضوا بالشعر وأجادوا في موضوعات مختلفة⁶ على رأسها المدح الذي ازدهر في بداية الموحدين، نتيجة لعناية الخلفاء به.

1 . سمي الموحدون بالموحدين لأنهم أول من تحدث في التوحيد وعلم يوسف عيد ، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، سنة 2002م، ص6.

2 . هو أبو عبد الله محمد بن تومرت البربري، لقب بالمهدي، ت مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، د.ط، سنة 1982م ، ص 273.

3 . هو عبد المؤمن بن علي ولد بتجارة ، قرية صغيرة قرب ندرومة سنة 487هـ. وكان أبوه قاضيا توفي سنة 558هـ، ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان، حققه إحسان عباس، دار صادر بيروت، د.ط، د.ت، ج7، ص237-238.

4 . هو أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي ولد سنة 533هـ، توفي بظاهر بشتين سنة 588هـ. ، ينظر: الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1973م، ج4، ص354.

5 . هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل القي س ي، ولد نحو 500هـ. في وادي آش قرب غرناطة، اتصل بالموحدين حتى وفاته سنة 581هـ. في مراكش، من أعماله "حي بن يقظان" ينظر الإحاطة، ج2، ص478-482.

6 . الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، محمد مجيد السعيد، دار الراجعية للنشر والتوزيع، عمان، ط 3، سنة 1429 هـ -2008م، ص69-80.

فهذا ابن تومرت كان يستدعي الشعراء لسمع منهم المدائح، ويغدق عليهم بالهدايا. فتوطدت العلاقة بين الخلفاء والشعراء، ودفعت هؤلاء إلى التجويد في القول لأنهم يدركون مقدار ثقافة القارئ¹، يقول الرصافي² في مدح ابن همشك³:

مَلْحَلِّكَ التَّرْفِيعُ والتَّعْظِيمُ *** ولوجِهَكَ التَّقْدِيسُ والتَّكْرِيمُ

ولرَاحَتِكَ الحمدُ في أرزاقِنَا *** والرزقُ أجمعُ منهما مَقْسومٌ⁴

وكانت أغلب قصائد المدح تتسم بالمبالغة، مع تغذيتها من قصة موسى عليه السلام، وفي نهاية الموحدين تراجع فن المدح، فكان لزاما عليهم حث الحكام والشعب على مناهضة العدو، فازدهر فن الحماسة وبلغ أوجه أواخر الموحدين، وذلك أمام ضربات العدو للمدن الإسبانية مما يدعو لاستنهاض الهمم للحفاظ على ما تبقى من الوطن الجريح. فهذا ابن سهل الأندلسي الإشبيلي⁵ يستنجد عرب إفريقيا ويحثهم على الجهاد يوم حصار مدينة إشبيلية، يقول:

يا معشرَ العربِ الذينَ توارثوا *** شِيَمَ الحَمِيَّةِ كَابِرا عن كَابِرِ
أنتم أحقُّ بنصرِ نبييكم *** وبكم تمهَّدَ في قَدِيمِ الأعْصِرِ
أنتم بنبييكم رُكْنَةٌ فالتدعموا *** داك البناءَ بكلِ لُدُنِ أسْمِرِ
لكم صرائمٌ لوركبتم بعضَهَا *** أعنتكم عن كلِ طَرْفِ مُضْمِرِ⁶

أما الوصف فنجد تنوع بين وصف الطبيعة من أنهار ورياض، مثلما هو الشأن عند ابن الأبار¹، كما نجد وصفا للدوايب من خلال حركتها وصوتها وجريان الماء، ولم يقف

¹ ديوان بختري الأندلس أبو بكر يحيى بن مجبر الموحدي، ص 17.

² هو أبو عبد الله محمد بن غالب الرصافي البليان س ي الأندلسي ولد في رصافة بلنسية، سكن غرناطة ثم مالقة توفي سنة 572هـ.، ينظر وفيات الأعيان، لابن خلكان، ج 4، ص 432.

³ أبو إسحاق إبراهيم بن همشك أمير م غربي كان صاحب حيان بالأندلس، إحدى أذنيه مقطوعة وهمشك تعني مقطوع، الأذن تنوي بمراكش سنة 382هـ، ينظر: الأعلام لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط 15، د.ت، ج 2، ص 29.

⁴ الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، ص 116.

⁵ هو أبو إسحاق إبراهيم بن سهل، ولد في إشبيلية سنة 609هـ. على اليهودية فكان يعرف بابن سهل اليهودي أو الإسرائيلي، ولما اهتدى إلى الإسلام أصبح يدعي ابن سهل الإشبيلي، توفي غرقا في البحر سنة 649هـ، ينظر المغرب في حلى المغرب لابن سعيد المغربي. حققه وعلق عليه شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط 2، د.ت، ج 1، ص 289.

⁶ ديوان ابن سهل الأندلسي قدم له الدكتور إحسان عباس، دار صادر بيروت، د.ط، 1400هـ، 1980م، ص 141.

الشاعر الموحدي عن هذا، بل تعداه إلى وصف النار، كما فعل أبو الربيع سليمان ابن أحمد العبدي²، حين قال:

ولقد نِعِمْتُ بنارِ فَحْمٍ أَصْبَحَتْ *** تَحْتَالُ بَيْنَ مُعْصَفِرٍ وَمَوْرِدٍ
إِلَّا بَقَايَا كَالدُّجَى مُسْوَدَّةٌ *** أَوْ مِثْلُ أَصْدَاغِ الْعِذَارَى الْخَرْدِ.³

كما تبارى الشعراء في وصف الخيول، وكأن لكل خيل صيغاته وخصائصه يتفرد بها، فمن ذلك قول ابن سعيد⁴:

لقد سَرِينَا فِي مُتَوْنِ ظَوَاهِرٍ *** تَتْنِي أَعْنَاقَهَا مِنَ الْخِيَلِ
أَوْ أَشْهَبَ يَحْكِي غَدَائِرَ أُسَيْبٍ *** خَلَعَتْ عَلَيْهِ الشُّهُبُ فَضْلَ رِدَائِ⁵

ولقي الغزل حظه من الاهتمام حيث كان يخضع لتقاليد الشعر القديمة المعروفة منذ الجاهلية، والجديد فيه أن القصائد الغزلية اتسمت بالاستقلالية، أو الصدق في تصوير المشاعر الوجدانية، واتخاذ بعض الغزليات صفة الأقصوصة، وظلت قصائد الغزل تدور حول المرأة والغلام متخذين اتجاهين منفصلين، العفيف والحسي، وكان الشاعر الموحدي مقيدا في وصف المرأة كالعيون النرجسية، والقامة الرشيقة، وغيرها...

ويعتبر ابن طفيل من الذين التزموا العفة في شعرهم، ومثال ذلك قوله:

ولما التقينا بعدَ طُولِ تَهَاجُرٍ *** وَقَدْ كَادَ حَبْلُ الْوَدِّ أَنْ يَنْصَرِمَا
جَلَّتْ عَنْ ثَنَائِيهَا وَأَوْمَضَ بَارِقُ *** فَلَـمَ أَدْرِ مَنْ شَقُّ الدُّجْنَةِ مِنْهُمَا.⁶

¹ . هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الرحمان بن أحمد بن أبي بكر القضاعي، المعروف بابن الأبار البلنسي، ولد في بلنسية سنة 595هـ. ونشأ بها، توفي سنة 658هـ، ينظر الحلة السيرة لابن الأبار، للدكتور حسن مؤنس، دار المعارف بمصر، ط2، 1985م، ج1، ص13.

² . هو أبو الربيع سليمان بن أحمد بن علي بن أبي غالب العبدي، الكاتب، من أهل دانية ينظر: المقتضب من كتاب تحفة القادم، لابن الأبار، تحقيق إبراهيم الأبياري، المطبعة الأميرية بالقاهرة، د.ط، د.ت، ص31.

³ . المصدر نفسه، ص31.

⁴ . هو أبو الحسن علي بن موسى بن محمد بن سعيد، ولد بغرناطة سنة 610هـ، من أسرة عريقة، توفي سنة 685هـ، ينظر: الاحاطة ج4، ص152.

⁵ . الشعر في عهد المرابطيين والموحدين بالأندلس، ص162.

⁶ . ديوان بختري الأندلس أبو بكر يحيى بن معج الموحدي، ص22.

أما التغزل بالعلمان فهو أيضا لقي اهتماما من طرف الشعراء، وكان ابن سهل أكثرهم إبداعا فيه وإجادة.

ونجد شعر الخمرة الذي ظل يعيش من زاده القديم متخذًا اتجاهين: أدكياه وطوراه، اتجاه مجوبي عابث، واتجاه صوفي متفلسف¹، وكان من الشعراء من تغنى بوصف الخمرة ولوازمها من أباريق وكؤوس.

فكان لسكب الخمر من الإبريق إثارة خاصة واهتمام واضح، فهذا أبو الربيع بن سالم² يخلق بينه وبين الإبريق حبا وغزلا، فكلما همس في أذن الكأس وقبله أثار خجله واحمرت وجنتاه، يقول من ذلك:

غازل من كأسه حبيبا له *** فكلما قبله أخجله³

وكان للثناء حظ وافر، فقد رثى الشعراء مدنهم وندبوها، ورثوا أقاربهم وأحبابهم وحنوا إليهم، ووقفوا على أطلال مدنهم التي أسقطها العدو في شعر حزين مبك، فأدخلوا نمط شعري جديد هو الحنين إلى الأرض والأهل، وظهر بشكل بارز من أنواع الرثاء هو رثاء المدن الموحدية نتيجة لتساقطها⁴، يقول ابن الأبار يندب بلنسية في صورة حزينة:

بلنسية يا عذبة الماء والجنى *** سقيت وإن أشقيت صوب الرواحس

ومن عجب أن الديار أواهل *** وأندجها ندب الطلول الدوارس⁵

وتطور الهجاء أيضا، لكن انحصرت مهمته في إظهار معايب الحكام إلى جانب القضاة والفقهاء الذين شاركوا في تسيير دفة الحكم، وعرف ابن حزمون¹ بهذا الاتجاه ووصل به الحد أن هجا نفسه على طريقة الحطيئة، يقول في ذلك:

1 . ينظر مدخل إلى الأدب الأندلسي، يوسف طويل، دار الفكر اللبني، بيروت، ط1، 1991م، ص66.

2 . هو أبو الحفص بن عمر بن القاضي الجليل محمد بن عبد الله بن عمر السلمى: يكنى أبو الربيع بن سالم، ولد بعمان سنة 530هـ، سكن مدينة فاس، توفي سنة 603هـ. ينظر أزهار الرياض في أخبار القاضى عياض للمغربي التلمساني، مطبعة لجنة التأليف والترجم والنشر، القاهرة، د.ط، 1940م، ج4، ص295-303.

3 . نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب أحمد بن محمد المقردي التلمساني، تحقيق يوسف البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1998م، ج4، ص111.

4 . ينظر مدخل إلى الأدب الأندلسي، ص110.

5 . ديوان ابن الألو قراءة وتعليق عبد السلام المراس، المملكة المغربية، وزارة الأوقاف، د.ط، 1999م، ص413.

تَأَمَّلْتُ فِي الْمِرَاةِ وَجْهِي فَخَلَّتْهُ *** كَوْجِهِ عَجُوزٍ قَدْ أَشَارَتْ إِلَى اللَّهِو
 إِنْ شِئْتَ أَنْ تَهْجُو تَأَمَّلْ خَلِيقَتِي *** فَإِنَّ بِهَا مَا قَدْ أَرَدْتَ مِنَ الْهَجْوِ²

كما كان للشعر الديني نصيب من الاهتمام فعبّر فيه الشاعر عن شحنته العاطفية التي تختلج في الوجدان الديني للإنسان، ومن أنواعه النبويات، الذي كان ازدهاره أواخر الموحدين ركز فيه الشاعر على كرم الرسول صلى الله عليه وسلم، وشجاعته وزهده، ونوع ثاني صوفي، كان شعراؤه من المتصوفة.

أما النوع الثالث فهو الزهد، والذي دعا فيه الشاعر إلى العزوف عن متاع الدنيا والتمسك بالعمل الصالح³، ومثاله قول أبي عمران بن عمر المارتلي⁴، يصف تزهده في الدنيا:

سَلِيخَةٌ وَحَصِيرٌ *** عَلَى مِثْلِي كَثِيرٌ
 وَفِيهِ شُكْرٌ لِرَبِّي *** خَبِرٌ وَمَاءٌ نَمِيرٌ⁵

كما نجد الشاعر الموحدي شكا إحساسه بالغبن والاضطهاد نتيجة الصراعات الداخلية، أو بسبب تساقط مدن الأندلس بعدما راح تاركا دياره إلى مناطق نائية، واتخذت الشكوى مسلكين⁶. **الدهر** الذي كان موجودا منذ القديم، وفي عهد الموحدين انتقل إلى سطوح الأشياء، وبصماته التي يتركها وراءه على الوجود وعلى الإنسان خاصة كالشيب وتقوس الظهر، فهذا أبو الربيع راعه منظر الشيب في رأسه ولحيته، يقول متألما:

لَقَدْ رِيحَ قَلْبِي لِلشَّبَابِ وَفَقَدَهُ *** كَمَا رِيحَ بِالْعَلْقِ الْفَقِيدِ ضَنْبِي
 وَالْمَنِي وَخَطُّ الْمَشِيبِ بَلَمَّتِي *** فَخَطَّتْ بِقَلْبِي لِلشُّجُونِ فُنُونٌ⁷

¹ . هو أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الرحمن بن حزمون، من أهل مرسية، توفي بعد سنة 614هـ، ينظر الأعلام للزركلي، ج4، ص271.

² . أمراء الشعر الأندلسي، عيسى خليل محسن، جدير للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2007م، ص167.

³ . ينظر الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، ص198

⁴ . هو أبو عمران موسى بن عمران المارتلي، نسبة إلى مارت لة، ولد سنة 522هـ، توفي سنة 604هـ.، ينظر تاريخ الأدب العربي في المغرب والأندلس، عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط2، 1984م، ج5، ص570.

⁵ . الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، عبد الله علي علام، دار المعارف مصر، القاهرة، د.ط، 1971م، ص343.

⁶ . ينظر الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، ص244-266.

⁷ . نفع الطيب، ج5، ص360.

والمسلك الثاني هو **الغربة والحنين** الذي ازدهر في هذا العصر خاصة نتيجة لهجرة الناس بسبب تساقط المدن الأندلسية وعدم الاستقرار والأمن، فكان الشاعر من عامة الناس الذين ابتعدوا عن أوطانهم، فصور إحساسه بالبعد والحنين إلى أهله ودياره في شعر حزين صادق، يقول ابن سعيد مشتاقا إلى وطنه المغرب:

هذه مصر فأين المغربُ *** مُدْ نَأَى عَيْنِي عَيْنِي تَسْكُبُ
فارقته النفسُ جهلاً إنما *** يُعرفُ الشَّيءُ إذا ما يَذْهَبُ¹

وما دمننا قد وقفنا على الشعر في عصر الموحدين فلا يمكننا أن نمر دون الإشارة إلى فن من فنون الشعر، عرف آنذاك بالموشحات، الذي بلغ دروته في هذه الفترة طرق فيه الوشاح أغراضا جديدة، وفنونا مستحدثة، فعالج التصوف والهجاء والرتاء والحنين، أما بقية الأغراض الأخرى فكانت قليلة لا تتجاوز الموشحة الواحدة في بعضها²، ومن الشعراء الذين أجادوا في فن الموشحات نجد الشيخ ابن عربي³، والذي كانت معظم موشحاته في الزهد والتصوف يقول متشوقا إلى البيت الحرام وهو على مشارفه:

عندما لاحَ لِعَيْنِي المِتَّكَا *** دُبْتُ شَوْقاً للذي كَانَ مَعِي

أَيْهَا البَيْتُ العَتِيقُ المِشْرِقُ
جاءكَ العَبْدُ الضَّعِيفُ المِسرِفُ
عِينُهُ بالذَّمْعِ دَوْمًا تَدْرِفُ⁴

لقد كانت هذه جولة في الحياة الشعرية إبان هذا العصر، أجملت فيها الحديث عن أبرز الفنون الشعرية التي أكثر فيها الشعراء النظم وأجادوا.

¹ . نفع الطيب، ج2، ص404.

² . ينظر الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، ص447.

³ . هو محمد بن علي بن محمد بن عربي أ بو بكر الحاتمي الأندلسي، المعروف بمحي الدين بن عربي الملقب بالشيخ الأكبر، ولد في مرسية سنة 560هـ، وتوفي سنة 638هـ، ينظر نفع الطيب، ج2، ص305.

⁴ تاريخ الأدب الأندلسي، أحمد زكريا عناني، دار المعارف الجامعية، مصر، د.ط، 1999م، ص219.

يعد الشعر الديني واحداً من أنواع الشعر العربي الذي تعددت أغراضه، من زهد إلى تصوف إلى مديح نبوي، والحديث عن هذا الأخير شيق باعتباره منوطاً بأشرف خلق الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وقبل الحديث عن نشأة المدائح النبوية والغوص في غمارها حري بنا وبالأهمية بمكان، أن نقف على مفهوم المديح النبوي.

➤ المبحث الأول: مفهوم شعر المديح النبوي:

أ. المدح لغة: عرفه الزمخشري بأنه: "وصف الممدوح بأخلاق حميدة وصفات رفيعة يتصف بها فيمدح عليها"¹

وقد ورد في لسان العرب أن المدائح مصدر مشتق من مادة مَدَحَ بفتح الحروف الثلاثة، فيقال مَدَحَهُ مَدْحًا، ومَدَحَةً، بمعنى أحسن الثناء عليه، والجمع مَدَائِحُ.²

وجاء في المستطرف "وصف الممدوح بأخلاق يمدح عليها ويكون نعتاً حميداً وهذا يصح من المولى في حق نبيه محمد صلى الله عليه وسلم".³

قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾⁴ صدق الله العظيم.

فالمدح إذن هو التغني بالخصال الحميدة والإشادة بمناقب الممدوح وصفاته، ومن هذا المنطلق فالمراد بالمديح النبوي هو ذلك الفن الشعري الذي موضوعه الثناء على شخصية النبي صلى الله عليه وسلم.

ب. المدح اصطلاحاً: يعرف زكي مبارك المدائح النبوية بأنها: "من فنون الشعر التي أذاعها

التصوف، فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية، وباب من الأدب الرفيع، لأنها لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص"⁵، ويعرفه غازي شيب بأنه: "لون شعري جديد صادر عن العواطف النابعة من قلوب مفعمة بحب صادق وإخلاص متين للنبي عليه الصلاة والتسليم"⁶

1. أساس البلاغة للزمخشري، دار صادر بيروت، د.ط، 1965م، مادة مدح، ص585.

2. لسان العرب لابن منظور، دار صادر بيروت، د.ط، 1956م، ج2، مادة مدح، ص590.

3. المستطرف من كل فن مستظرف، شهاب الدين محمد بن أحمد الإشبيلي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1422هـ، 2001، ج1، ص341.

4. سورة القلم، الآية "6".

5. المدائح النبوية في الأدب العربي، زكي مبارك، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د.ط، د.ت، ص17.

6. المستظرف من كل فن مستظرف، شهاب الدين محمد الإشبيلي، ج1، ص342.

كما عرفه جميل حمداوي بأنه: " ذلك الشعر الذي ينصب على مدح النبي صلى الله عليه وسلم بتعداد صفاته الخلقية والخلقية وإظهار الشوق لرؤيته وزيارة قبره والأماكن المقدسة التي ترتبط بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم، مع ذكر معجزاته المادية والمعنوية، ونظم سيرته شعراً والإشادة بغزواته وصفاته المثلى، والصلاة عليه تقديراً وتعظيماً".¹

إن ما نستشفه من هذه المفاهيم، أن المديح النبوي فن شعري راق نابع من قلوب متشعبة بالإيمان، ينظم اتجاه النبي صلى الله عليه وسلم ويشيد كل ما يتعلق به عليه الصلاة والسلام، سواء أكان مادياً أو معنوياً.

¹ .شعر المديح النبوي في الأدب العربي، جميل حمداوي، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 2007م، ص1.

➤ المبحث الثاني: نشأة المديح النبوي وتطوره:أ. المديح النبوي قبل البعثة:

كان المجتمع العربي يحكمه نظام قبلي وعلاقة القبائل بعضها ببعض، تقوم غالباً على العداة، فالقبيلة مغيرة أو مُغار عليها، ولكل قبيلة شاعر يرفع ذكرها ويتغنى بمفاخرها، ويهج أعداءها، وكل فرد في القبيلة متعصب لقبيلته وعلى القبيلة أن تحميه وتدافع عنه، فالفرد من القبيلة وإليها، حتى ليقول الشاعر دريد بن الصَّمّة:

وَمَا أَنَا إِلَّا مِنْ عَزِيَّةٍ إِنَّ عَوْتَ عَوَيْتُ وَإِنْ تَرَشُدُ عَزِيَّةٌ أَرَشُدُ¹

وكان الشعر ديوان العرب وسجل لتاريخهم وبطولاتهم، فهو على حد قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه "علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه"²، ولا نكاد نعرف أمة من الأمم القديمة اهتمت بالشعر واحتفلت له كما اهتم العرب، ولهذا لم يكن من الغريب أن يوظف الشعر في الصراعات الدائرة بين القبائل وحتى بين الديانات.

وقد عرف الشعر قبل الإسلام أغراضاً شعرية كثيرة ومتنوعة، وكان المديح واحداً من هذه الأغراض ذات المكانة، ويعد هذا المديح البدرة الأولى لفن المدائح النبوية الذي قدر له بعد قرون أن يستقل بذاته ويصبح أكثر موضوعات الشعر حظاً في القبول والذيع.³

ولعل أول ما نعرف من الشعر الذي قيل في الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته، وقبل بعثته، الشعر المنسوب إلى أبي طالب عم الرسول صلى الله عليه وسلم وكافله بعد وفاة جده عبد المطلب، ويقول ابن سلام "أن أبا طالب كان شاعراً جيد الكلام"⁴، يعده من أبرع شعراء مكة، ومن هذا الشعر قصيدة نظمها يصف لقاء الراهب بحيرة بالرسول صلى الله عليه وسلم. وكيف كانت علامات النبوة تشع من وجهه الكريم، يقول في بعضها:

إِنَّ ابْنَ آمِنَةَ النَّبِيِّ مُحَمَّدًا *** عِنْدِي يَفُوقُ مَنَازِلَ الْأَوْلَادِ
وَأَمْرُهُ بِالسَّيْرِ بَيْنَ عُمُومَةٍ *** بِيضِ الْوُجُوهِ مَصَالَتِ الْأَجَادِ

¹ ديوان دريد بن الصمة، تحقيق عمر عبد الرسول، دار المعارف، القاهرة، د.ط، 1980م، ص273.

² العمدة لابن رشيقي القيرواني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، د.ط، 1934م، ج1، ص27.

³ ينظر المدائح النبوية في الأدب العربي، لركي مبارك، ص13.

⁴ طبقات فحول الشعراء، لمعد بن سلام الجمحي، تحقيق محمود محمد شاكر، القاهرة، د.ط، 1394هـ/1974م، السفر الأول، ص233.

عَنْهُ وَرُدُّ مَعَاشِرِ الْحَسَادِ جَبْرًا فَأَخْبِرْهُمْ حَدِيثًا صَادِقًا
 لَأَقُوا عَلَيَّ شَرْكَ مِنَ الْمِرْصَادِ حَتَّى إِذَا مَا الْقَوْمُ بَصْرَى عَايَنُوا
 ظ لُ الْغَمَامِ وَعَنْ ذِي الْأَكْبَادِ¹ قَوْمَ إِيهُودَا قَدْ رَأَوْا لَمَّا رَأَى

ولعل أهم ما يستوقفنا من شعر أبي طالب في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، قصيدته اللامية الطويلة، والتي تعد أبرع ما قاله أبو طالب على حد قول ابن سلام الجمحي²، فقد حوت أروع ما مدح به النبي عليه الصلاة والسلام، وهذه بعض الأبيات التي وردت فيها:

وَأَبْيَضُ يَسْتَقِي الْغَمَامُ بَوَجْهِهِ تَمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةً لِلْأَرَامِلِ
 ...لَعُمْرِي لَقَدْ كَلَّفْتُ وَجَدًا بِأَحْمَدَ وَإِخْوَتَهُ ذَأْبُ الْمِحْبِّ الْمَوَاصِلِ
 فَمَنْ مِثْلُهُ فِي النَّاسِ أَيُّ مُؤَمِّلٍ إِذَا قَاسَهُ الْحُكَّامُ عِنْدَ التَّفَاضُلِ
 حَلِيمٍ رَشِيدٌ عَادِلٌ غَيْرُ طَائِشٍ يُوَالِي إِلَيْهَا لَيْسَ عَنْهُ بِعَافِلٍ³

ولقد اقتصرنا على ذكر هذه الأبيات فقط، وإن كانت قصيدة أبي طالب جلها مدحا للرسول صلى الله عليه وسلم.

ومن الذين مدحوا الرسول الكريم، كذلك الأعشى وله قصيدة يقول فيها:

أَلَمْ تَعْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرْمَدَا وَبِتَّ كَمَا بَاتَ السَّلِيمُ مُسْتَهْدَا
 وَمَا ذَاكَ مِنْ عَشْقِ النَّسَاءِ وَإِنَّمَا تَنَاسَيْتَ قَبْلَ الْيَوْمِ خُلَّةَ مُهَدَّدَا
 ...نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا تَرُونَ وَذَكَرُهُ أَغَارَ لَعُمْرِي فِي الْبِلَادِ وَأَبْجَدَا
 لَهُ صَدَقَاتٌ مَا تَغَبَّ وَنَائِلُ وَلَيْسَ عَطَاءَ الْيَوْمِ مَانِعُهُ عَدَا⁴

وإن كان هذا الشعر ليس من المدائح النبوية لأن الأعشى لم يقل هذا الشعر وهو صادق النية في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وآية ذلك أنه انصرف حين صرفته قريش، فقد حدثوا أن قريشا رصدوه على طريقه حين بلغهم خبره وسألوه أين يريد؟ فأخبرهم أنه يريد محمدا ليسلم، فأفهموه أنه ينهاه عن الزنا والقمار والربا والخمر.

¹ . أدبيات المدائح النبوية، محمود علي مكي، الشركة المصرية العالمية للنشر، لوجمان دار نوبار للطباعة، شبرا، القاهرة، ط1، 1991م، ص19.

² . ينظر طبقات فحول الشعراء، ج1، ص244.

³ . أدبيات المدائح النبوية، محمود علي مكي، ص20-21.

⁴ . ديوان الأعشى ميمون بن قيس، شرحه وقدم له مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1993م، ص49.

فقال له أبو سفيان: هل لك في خير ما هممت به؟ قال وما هو: قال: نحن الآن في هدنة، فلتأخذ مائة من الإبل وترجع إلى بلدك سنتك هذه، وتنظر ما يصير إليه أمرنا فإن ظهرنا عليه كنت قد أخذت خلفا، وإن ظهر علينا أتيته، فقال ما أكره ذلك، وجمع له أبو سفيان من قريش مائة ناقه، فأخذها وانطلق إلى بلده فلما كان (بقاع منفوخة) رمى به بعيره فقتله¹.

ولما كان الرسول صلى الله عليه وسلم فيه من المروءة والشجاعة والكرم وهي الصفات التي اتفق عليها العلماء - العقل والعدل والعفة والشجاعة - كان القاصد للمدح بهذه الأربعة مصيبا، وبما سواها مخطئا وكل ما قيل في مدح الرسول الكريم دلالة واضحة على إعجاب الناس بشمائله ومكارمه.

فقد نهل الشعراء لتخليد هذه الشخصية الكريمة واختلفوا فيما بينهم وبرز بعضهم في جانب معين ونقص في جوانب أخرى، واختلفت أفكار الشعراء ومعانيهم باختلاف ثقافتهم ومراسمهم في فن المديح.

ب. عصر صدر الإسلام:

اتسم هذا العصر بالتغيير والتحول والتجديد في أنماط السلوك الإنساني عند العرب، وذلك أن أبناء هذا الجيل قد تحولوا عقائديا من وثنية أغرقتهم في تيه عميق من الجهل إلى ما أنقدهم به الدين الجديد.

ولم يكن شعر المديح النبوي بكل أشكاله مواكبا لهذا التحول والتجديد فالنثر غالبا ما يكون أكثر طواعية في استقبال هذه الدعوات الجديدة وهذا أقدر على تصوير مراحل الانتقال، بينما الشعر يحتاج إلى الروية والتأني في نظمه².

وهذا ما يفسر لنا مدى قلة الشعر الخاص بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، ومدى غلبة أسلوب التقرير على أغلب صورته الفنية، وعدم قدرة بعضها على التخلص من الشكل التقليدي.

فالشعر بكل مقوماته وعناصره وخصائصه يحتاج إلى وقت كاف للتفاعل مع الواقع والدعوات الجديدة. لقد طرأت على المديح النبوي ملامح جديدة أضافت إلى المدح، بصف عامة، قيما موضوعية وفنية وأسلوبية، لعل من أهمها أن شخصية النبي صلى الله عليه وسلم تبدو مثالية في التاريخ

¹ . ينظر المدايح النبوية في الأدب العربي، زكي مبارك، ص 19-20.

² . الأدب الصوفي في نهاية القرن الرابع الهجري، علي صبح، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر، د.ط، 1995م، ص 123.

الإنساني، لاشتماله على خصائص فريدة في تناول، وكذلك فإن عامل النبوة كان عاملاً حاسماً في جمع الشعراء المنصفين من حوله وحينذاك يتوفر عنصر الصدق الفني في تجربة الشاعر، ومن هنا تغيرت نظرة الشاعر إلى الممدوح، فبالرغم من أن الرسول صلى الله عليه وسلم وصف بنفس الصفات التقليدية القديمة، الوفاء، العفة، الشجاعة، إلا أن هذه الصفات بمجرد اقترانها بشخصية الرسول الكريم أصبح لها مدلولاً آخر أبلغ وأعمق في النفوس¹، وهذا ما نلقيه في جل نظم شعراء المديح النبوي في هذا العصر، يقول كعب بن زهير:

إِنَّ الرَّسُولَ لَسَيْفٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ مُهَنْدٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ مَسْلُوكٌ²

فصورة السيف الذي يستضاء به هي صورة غير مألوفة من قبل لأنها، هاهنا تصور شخصية العادل الحاسم الذي يتبين للناس ويوضح لهم الطريق المستقيم وهذا البحث قلما يتوفر في شخصية جاهلية، ويقول كعب بن مالك:

رَأَيْسُهُمُ النَّبِيُّ وَكَانَ صَلْبًا نَقِيَّ الْقَلْبِ مَصْطَبِرًا عَزُوفًا
رَشِيدُ الْأَمْرِ دَا حُكْمٍ وَعِلْمٍ وَجَلْمٍ وَلَمْ يَكُنْ نَزِقًا خَفِيفًا³

ومن هنا فقد أضفى الرسول الكريم معاني خاصة للممدوح لم تتوفر لسابقه فلم تبق الشجاعة والاستبسال في القتال من أجل التباهي والتفاخر السليم، وإنما أصبحت من أجل رفع كلمة الله والاستشهاد في سبيله، ولم يبق الكرم والتفاخر وإظهار المقدرة، وإنما أضحي لمساعدة الإخوة في الدين والتعبير عن التضامن الاجتماعي. وقد انبرى شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت يرد هجمات المشركين ويدافع عن الإسلام والرسول الكريم، وقد أثنى النبي عليه الصلاة والسلام على شعره، فكان يقول له "اهجهم وجبريل معك"⁴.

كما وقد مدح الشاعر الرسول صلى الله عليه وسلم لما أتى به من مبادئ وما اتصف به من خصال، يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

أَعْرُ عَلَيْهِ لِلنُّبُوَّةِ خَاتَمٌ ***
مِنَ اللَّهِ مَشْهُودٌ يُلُوحُ وَيَشْهَدُ

1. ينظر، المجموعة النبهانية في المدائح النبوية - دراسة أسلوبية- عبد القادر البار، رسالة دكتوراه، ص20.
2. ديوان كعب بن زهير، صنعه الحسن بن الحسين العسكري، قدم له حنا نص ر الحمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1، 1414هـ/1994م، ص13.
3. المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، يوسف النبهاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1417هـ، 1996م، ج1، ص67.
4. السجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح، زيد الدين الزبيدي، دار النفائس، بيروت، ط 1، 1995م، ص307.

وشقَّ له من اسمه ليجلَّهُ *** فدو العرش محمودٌ وهذا محمدٌ¹

ويقول في أبيات أخرى يمدح الرسول صلى الله عليه وسلم:

وأجملُ منك لم تر قطُّ عيني *** وأكملُ منك لم تلدِ النساءُ

خُلقت مبرءً من كلِّ عيبٍ *** كأنَّك قد خلقت كما تشاءُ²

لقد أجاد حسان في جميع مدائحه النبوية حتى أنه كان يلقب بشاعر الرسول صلى الله عليه

وسلم. ومن الشعراء الذين مدحوا الرسول الكريم في هذا العصر كذلك، عبد الله بن رواحه، وهذا

أيضا كان كثير النظم، يقول:

عَمَّتْ فضائلُه كلَّ العبادِ كما *** عَمَّ البريةَ ضوءُ الشمسِ والقمرِ³

ج. عصر بني أمية:

يمثل هذا العصر أهم العصور في تاريخ المسلمين فقد كان عصر الراشدين من قبل خطوة هامة

لتأسيس الدولة وتنظيمها، ورتقيها، ولقد كنا نتوقع أن يتطور فن المديح النبوي في هذا العصر

خصوصا بعدما تهيأت أسباب تطوره، فقد توفرت نماذج فنية لهذا الفن كانت قابلة للمعارضات، لكن

هذا الفن لم يلق العناية الكافية التي تكفل له الارتقاء والازدهار، فقد انحصر عند طائفة الشيعة ولم

يقصدوا به مدح الرسول صلى الله عليه وسلم لذاته، وإنما جاء المدح النبوي عرضا، فقد اختلط

بأفكار الشيعة، وامتزج بالندب والبكاء فبات المديح في هذا العهد صوتا مبجوحا، ومن بين أسباب

قلة المديح:

(1) اشتغال المسلمين في المدينة بجمع القرآن وهذا ما أدى إلى تأخر السنة النبوية ذاتها.

(2) اشتغال المسلمين بخلافاتهم الداخلية، فقد كان له أثره السلبي على تغير الأفكار عند كثير من

المسلمين.

(3) انتشار موجة الخلافات الدينية والسياسية بين المسلمين واشتغال كل شاعر بمبادئ فرقته

الدينية ومذهبه السياسي عن أفكار المسلمين عامة.

(4) ابتلاء المديح النبوي بما أقبلت به الشيعة من الشبهة، والمعاقبة⁴ من ذلك ما يقول أحد

شعرائهم، عبد الله بن كثير:

¹ ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، شرحه عبد أ. مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1994م، ص54.

² المصدر نفسه، ص21.

³ المجموعة الرهانية في المدائح النبوية، ج2، ص66.

⁴ ينظر أدبيات المدائح النبوية، محمود علي مكي، ص69-70.

إِنَّ أَمْرًا أَمْسَى مَعَايِبُهُ
بِحُبِّ النَّبِيِّ لَعَيْرَ ذَنْبٍ
أَيُّعُدُّ ذَنْبًا أَنْ أُحِبَّهُمْ
بَلْ حُبُّهُمْ كَفَّارَةٌ الذَّنْبِ

1

على أن الذي يهمننا من هذه الأشعار هو ما تضمنته من مديح الرسول الكريم أو رثائه، ولعل الكميث هو أول من عاد إلى مثل هذا الموضوع بعد مضي قريب من قرن من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فنحن نراه يقول في هاشميته البائية الثانية:

فَاعْتَبَبَ الشَّقُوقُ مِنْ فُؤَادِي وَالشُّبَا *** عُرُّ إِلَى مَنْ إِلَيْهِ مُعْتَبَبُ
إِلَى السَّرَاجِ الْمَنِيرِ أَحْمَدَ لَا *** تَعْدِلُنِي رَغْبَةً وَلَا رَهْبُ
أَنْتَ الْمَهْصَقِيُّ الْمُخَضُّ الْمَهْدَبُ فِي الذِّ *** سَبَّةٍ إِنْ نَصَّ قَوْمَكَ النَّسْبُ²

والملاحظ أن شعر المديح النبوي عرف تراجعاً في هذا العصر للأسباب التي سبقت، كما أن الشعراء عزفوا عن هذا الغرض الشعري وعنوا بالقضايا السياسية والخلافات الطائفية.

د. العصر العباسي:

بدأ هذا الفن بأشكال متعددة في العصر العباسي نتيجة ظهور بعض الأوضاع المختلفة التي أدت إلى انتشاره، ويمكن تحديد أهمها:

(1) تنازل بعض فرق الشيعة عن موقف العداء للدولة العباسية، فقد ساعد هذا الأمر على خفة الحدة المذهبية عن بعض شعرائهم.

(2) ظهور الحركة الصوفية وازدهارها، فعلى الرغم من أن شعر الحب الإلهي ظل له المكانة العليا عند شعرائهم ، فإن المديح النبوي أخذ يتولد شيئاً فشيئاً حتى نال مكانة سامية عند أغلبهم في القرن السابع هجري.

(3) الامتزاج مع الحضارات الجديدة واقتباس بعض أفكارهم مثل تبجيلهم للملوك والأمراء وتقديسهم الأنبياء، مما أسهم إسهاماً فعالاً إلى تقدم هذا الفن وانتشاره.

(4) انتشار العلوم المتخصصة في السيرة النبوية وعلوم الحديث، فقد أدى ذلك إلى إجلال صورة النبي صلى الله عليه وسلم من خلال حياته ودعوته.

¹ . البيان والتبيين، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر ، ط5، ج 3، ص79.

² . المدائح النبوية حتى العصر المملوكي، محمود سالم محمد ، دار الفكر، دمشق ، ط1، 1417هـ ، ص83.

5) تأثر بعضهم بالماضي العريق للمديح النبوي خصوصا في قصيدة "بانت سعاد" لكعب بن زهير فقد عارضها معظم الشعراء¹.

لقد أدت هذه الأوضاع إلى تعدد مواضيع قصائد المديح النبوي في هذا العصر، من ذكر لمناقب الرسول الكريم، ومكارمه، وأخلاقه، إلى الترك بآثاره، وشوقا إلى زيارة قبره الشريف، فهذا أبو الخطاب الجبلي²، يزور قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيشعر بالارتياح ويركن إلى السكينة والاطمئنان، فيقول:

رُوَيْدَكَ قَدْ أَصْبَحْتَ جَارًا لِأَحْمَدَ *** وَحَسْبُ امْرٍءٍ أَنْ يَسْتَجِيرَ بِجَارِهِ
لأَفْضَلِ مَنْ يَغْشَى عَلَى بُعْدِ دَارِهِ *** وَأَكْرَمُ مَنْ يَعْشَى إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ³

والملاحظ أننا لم نجد في هذا العصر مدحا خالصا للنبي الكريم لا يشاركه فيه موضوع آخر، فالشاعر الذي لا يمدح خليفة، أو لا ينحاز إلى الشيعة، أو لا يرى أي فرقة معينة ولا يتحدث عن الحج أو عن العقيدة، وأراد ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم، فإن ذكره له يكون خالصا للمديح، وهذا ما نجده عند مهيار الديلمي⁴، فبعد إسلامه أخلص مديحه للرسول صلى الله عليه وسلم، فقال:

أَمْثَلُ مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى *** إِذَا الْحُكْمَ وَلَّيْتُمُوهُ لِبَيْبَا
بَعْدَ مَكَانٍ يَكُونُ الْقَيْسُمُ *** وَفَصَلِّ مَكَانَ يَكُونُ الْخَطِيبَا
وَتَبَّتْ إِذَا الْأَصْلُ خَانَ الْفُرُوعَ *** وَفَضِّلِ إِذَا النَّقْصُ عَابَ الْحَسِيبَا
وَصِدْقٍ بِإِقْرَارِ أَعْدَائِهِ *** إِذَا نَافَقَ الْأَوْلِيَاءُ الْكَذُوبَا
أَبَانَ لَنَا اللَّهُ نَهْجَ السَّبِيلِ *** بِيَعْتِهِ وَأَرَانَا الْغُيُوبَا⁵

فمهيار مدح النبي صلى الله عليه وسلم وبين فضله على العالمين، وأنكر أن يكون له شبيه في الفضائل التقليدية، وزاد على ذلك بالإشارة إلى أثره في البشرية، وهدايتها إلى سواء السبيل، وهذه الهداية هي التي أكدها أبو العلاء المعري، حين مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال:

دَعَاكُمْ إِلَى خَيْرِ الْأُمُورِ مُحَمَّدٌ *** وَلَيْسَ الْعَوَالِي فِي الْقَنَا كَالسَّوَابِلِ

1 . ينظر، المجموعة النهائية، عبد القادر البار، ص 23.

2 . هو أبو الخطاب الجبلي، محمد بن علي بن محمد، الشاعر، له معرفة بالعربية كان مفرطا في القصر رافض بالوفيات، للصفدي، تحقيق مجموعة دار فرانز شتاينر، المعهد الألماني للدراسات الشرقية، بيروت، د. ط، 1980م، ج 4، ص 124.

3 . المدائح النبوية حتى العصر المملوكي، محمود سالم محمد، ص 93.

4 . هو مهيار الديلمي، مه يار بن مرزو يه، شاعر كبير، كان مجوسيا فأسلم على يد الشريف الرضي وتشيع، توفي سنة 428هـ، ينظر شدرات ال ذهب في أخبار ذهب، ابن العماد الجبلي، دار المسيرة، بيروت، د. ط، د. ت، ج 3، ص 242.

5 . ديوان مهيار الديلمي، تحقيق أحمد نسيم، دار الجليل بيروت، ط 1، 1986م، ص 17.

وَأَلْزَمَكُمْ مَا لَيْسَ يَعْجَزُ حَمْلُهُ	***	أَخَا الضُّعْفِ مِنْ فَرَضٍ لَهُ نَوَافِلِ
وَحَثَّ عَلَى تَطْهِيرِ جِسْمٍ وَ مَلْبَسٍ	***	وَعَاقِبَ فِي قَذْفِ النَّسَاءِ الْعَوَافِلِ
فَصَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ مَا ذَرَّ شَارِقُ	***	وَمَافَتْ مِسْكَ ذِكْرُهُ فِي الْحَافِلِ ¹

وإذا زاد المعري الصلاة على النبي المصطفى في قطعه هذه ، فإن ابن الدهان أظهر رغبته في السعي لزيارة الرسول صلى اله عليه وسلم مهما كانت الصعاب، زيادة على تأكيده معنى الهداية في قوله:

أَيَا خَيْرٍ مَبْعُوثٍ إِلَى خَيْرِ أُمَّةٍ	***	نَصَحْتَ وَبَلَّغْتَ الرَّسَالَةَ وَالْوَحْيَا
فَلَوْ كَانَ فِي الْإِمْكَانِ سَعْيِي بِمُقَلَّتِي	***	إِلَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ أَفْنَيْتُهَا سَعِيَا ²

إن العصر العباسي عصر طويل نسبيا ولم تسر فيه الأمور رتيبة متشابهة، ولم تكن الظروف متماثلة ولذلك كان لابد من اختلاف الظواهر الأدبية وتطورها، و ليس دمج الحقب العباسية في عصر واحد إلا لتسهيل الدراسة، فخصائص الأدب في صدر العصر العباسي تختلف عنها في نهايته، إذ إن القسم الثاني من زمن الدولة العباسية شهد سيطرة العناصر الأعجمية على الخلافة، وانقسام الدولة إلى ممالك لا تدين للخلافة العباسية إلا بالولاء الاسمي فقط، ولكن رغم هذه الاختلافات التي حدثت، فقد بقي تطور الأدب على خط واحد تقريبا في جميع الأقطار العربية الإسلامية، فلا يظهر فن أدبي في هذا القطر حتى ينتشر بسرعة كبيرة في الأقطار العربية الإسلامية الأخرى ، حتى يصعب على الباحث أن، يقرر أولية هذا الفن أو ذلك، ومن هذه الفنون فن المدائح النبوية الذي يصعب معرفة أين ظهر متكاملا أول مرة، أفي مشرق الوطن العربي الإسلامي أم في مغربه، وستحدث عن المدائح النبوية، في المشرق العربي أولا ثم نتقل إلى المغرب³.

أ. المشرق العربي:

يبدو أن شعراء الدور الثاني من العصر العباسي كانوا متهيبين من مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنهم لا يدرون كيف يخاطبونه، وما هي معاني المديح التي تليق به ولا يدرون كيف يبنون قصائد مديحه، خوفا من الخطأ والإساءة فوجدوا أن أسلم طريقة لذلك هي معارضة قصائد مدح بها

¹ . اللزوميات، للمعري، عمر أبو النصر، دار الجليل ، بيروت ، د.ط ، 1969م ، ص192.

² . معجم الأدباء لياقوت الحموي، تحقيق، مرجليوت، دار إحياء التراث العربي، طبعة أخيرة، د.ت ، ج7، ص41.

³ . ينظر المدائح النبوية حتى العصر المملوكي ، محمود سالم ، ص105 .

رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته ورضي عنها¹ وكافأ عليها، ولهذا نجد الأبيوردي² يبدأ قصيدته مثلما بدأها كعب بوصف الرحلة وعلى طريقة كعب، لكنه لم يتابعه بيتا بيتا، ثم ينتقل إلى مديح الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول:

وَحَالَ دُونَ نَسِيبي بِالذَّمي مَدَحٌ	***	تَحْبِيرَهَا بِرِضَا الرَّحْمَانِ مَوْصُولٌ
أَزِيرُهَا قُرَشِيًّا فِي أَسْرَرَتِهِ	***	نُورٌ وَمِنْ رَاحَتِيهِ الْخَيْرُ مَأْمُولٌ
تَحْكِي شَمَائِلُهُ فِي طَيْبِهَا زَهْرًا	***	يُفَوِّحُ وَالرَّوْضُ مَرْهُومٌ وَمَشْمُولٌ
هُوَ الَّذِي نَعَّشَ اللَّهُ الْعِبَادَ بِهِ	***	ضَخَمَ الدَّسِيعَةَ مَتَّبِعٌ وَمَسْئُولٌ ³

وهكذا مضى الشاعر في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم جامعا بين القيم التقليدية، التي سار عليها القوم في المدح، ومتخذاً من كعب بن زهير قدوة له في ذلك، وبين المفاهيم الدينية التي ينفرد بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد أجاد الأبيوردي في معارضة كعب، فأخذ روح القصيدة، ولم يتبع جزئياتها، فجاءت أصيلة مبدعة.

ولعل رائد المدائح النبوية، في المشرق العربي، جمال الدين يحيى بن يوسف الأنصاري، المعروف بالصرصري⁴، يقول عنه ابن شاعر الكُتبي: "إنه صاحب المدائح النبوية السائرة في الآفاق، لا أعلم شاعرا أكثر من مدائح النبي صلى الله عليه وسلم أشهر منه، وشعره طبقة عالية"⁵.

يقول الصرصري في مدح خير البرية:

إِلَيْكَ رَسُولُ اللَّهِ أَهْدِي مَدَائِحِي	***	فَتَكْسِبُ مِنْ رَبِّكَ نَشْرًا مُؤَرِّجًا
وَتُلْبَسُهَا أَوْصَافُكَ الزَّهَرَ حُلَّةً	***	الْبَهَاءِ وَرَوْضًا مِنْ حُلَاكٍ مُدَجِّجًا
أَسْوَتَ بِمَا بَيَّنَّتْ دَاءَ قُلُوبِنَا	***	كَمَا كُنْتَ تَأْسُو قَبْلُ أَوْسًا وَخَزْرَجًا
وَكُنْتَ نَبِيًّا قَبْلَ آدَمَ مُرْتَجِي	***	لَتَفْتَحَ بَابًا لِلْهُدَايَةِ، مُرْتَجَا ⁶

1 . ينظر المدائح النبوية حتى العصر المملوكي، ص99.

2 . الأبيوردي، محمد بن أحمد من محمد القرشي، الأموي، شاعر عالي الطبقة، مؤرخ عالم الأدب، ولد في أبيورد بخراسان وكان يفخر بعرويته، مات مسموما سنة 507هـ، ينظر شدارات الذهب، لابن العماد الحنبلي، ج4، ص18.

3 . ديوان الأبيوردي، محمد بن أحمد، تحقيق عمر الأسعد، مجمع اللغة العربية بدمشق، مطبعة زيد بن ثابت، د.ط، 1394هـ-1974م، ص97.

4 . الصرصري، جمال الدين يحيى، بن يوسف الأنصاري (المعروف بالصرصري نسبة إلى صرصر (قرية قرب بغداد)، ولد سنة 588هـ، واستشهد سنة 656هـ، ينظر فوات الوفيات، لابن شاعر الكتبي، صلاح الدين محمد بن شاعر بن أحمد الدمشقي، تحقيق إحسان عباس، بيروت، د.ط، 1973م، ج4، ص298-319.

5 المصدر نفسه، ج4، ص310.

6 . أدبيات المدائح النبوية، محمود علي مكي، ص104.

إن الصرصري قد جعل جميع مدائحه موجهة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فجاءت مدائحه صادقة، مليئة بالشوق إلى النبي الكريم.

ويطول بنا الأمر لو عددنا شعراء المديح النبوي في المشرق العربي، خاصة في القرن السابع وما بعده غير أن هناك من هؤلاء الشعراء من يستحق منا وقفة خاصة، لعمق تأثيره على هذا الفن في العصور التالية، بل حتى اليوم، ونعني به شرف الدين البوصيري¹، والذي مدح النبي صلى الله عليه وسلم بقصائد عديدة أهمها معارضة كعب بن زهير، وهمزته التي أسماها " أم القرى في مدح خير الورى"، وبرده التي دعاها "الكواكب الدرية في مدح خير البرية".

فهمزته تبلغ أربعمئة وخمسة وخمسين بيتا، والشاعر يبدؤها بغير مقدمات فيتحدث عن فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقدمه على سائر الأنبياء، يقول في بعضها:

كَيْفَ تَرَقَى رُفَيْكَ الْأَنْبِيَاءُ *** يَا سَمَاءَ مَا طَاوَلَتْهَا سَمَاءُ
أَنْتَ مِصْبَاحٌ كُلِّ فَضْلٍ فَمَا تَصُ *** دُرٌّ إِلَّا عَنْ ضَوْئِكَ الْأَضْوَاءُ
لَكَ ذَاتُ الْعُلُومِ مِنْ عَالَمِ الْعَيْدِ *** بٍ وَمِنْهَا لَادَمَ أَسْمَاءُ
لَمْ تَزَلْ فِي ضَمَائِرِ الْكُونَ تَحْتَا *** رُ لَكَ الْأَمَّهَاتُ وَالْآبَاءُ
مَا مَضَتْ فَتْرَةٌ مِنَ الرُّسُلِ إِلَّا *** بِشَرْتِ قَوْمَهَا بِكَ الْأَنْبِيَاءُ.²

أما البردة فقد بلغت مائة وسبعة وستين بيتا، افتتحها بمقدمة غزلية تقليدية، لينتقل إلى الحديث عن النفس الأمارة بالسوء، وبعد هاتين المقدمتين ينتقل إلى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، فيقول:

مَحَمَّدٌ سَيِّدُ الْكُونِينَ وَالْتَّقْلِينِ *** وَالْفَرِيقِينَ مِنْ عُرْبٍ وَمِنْ عَجَمِ
هُوَ الْحَبِيبُ الَّذِي تُرْجَى شَفَاعَتُهُ *** لِكُلِّ هَوَلٍ مِنَ الْأَهْوَالِ مُقْتَحِمِ
فَاقَ النَّبِيِّنَ فِي خَلْقِي وَفِي خُلُقِي *** وَلَمْ يَدَانُوهُ فِي عِلْمٍ وَلَا كَرَمِ
فَإِنَّ فَضْلَ رَسُولِ اللَّهِ لَيْسَ لَهُ *** حَدٌّ فَيُعْرَبُ عَنْهُ نَاطِقٌ بِفَمِ.³

¹ البوصيري، محمد بن حماد الصنهاجي، ولد في دلاص . وهي قرية تقع غرب النيل . سنة 608هـ، اشتغل كاتباً، ثم احترف إلقاء القرآن، توفي سنة 698هـ. ينظر عصر الدول والإمارات، مصر، لأحمد شوقي، دار المعارف، القاهرة، ط2، د.ت، ج7، ص361، وينظر تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، راجعها شوقي ضيف، دار الهلال، د.ط، د.ت، ج3، ص130.
² ديوان البوصيري، تحقيق محمد سيد الكيلاني، مكتبة البابي الحلبي، ط2، 1973م، ص35.
³ المصدر نفسه، ص180.

فالبوصيري رسم منهاجا للشعراء من بعده، نظموا على منواله، حتى أصبح المديح النبوي منذ بداية القرن السابع موضوعا لا يكاد يتخلّف عنه شاعر في المشرق العربي.

ب. المغرب العربي:

إن بلاد المغرب العربي الممتدة من حدود مصر الغربية إلى الأندلس، لم تصبح جزء من "دار الإسلام" إلا في زمن متأخر نسبيا، فالمغرب لم يتم فتحه إلا في حدود سنة سبعين للهجرة والأندلس بعد هذا التاريخ بنحو عشرين سنة، ومنذ ذلك الوقت بدأت تتشكل في هذه الرقعة الفسيحة مجتمعات إسلامية الدين عربية اللغة، وكان من الطبيعي أن يحرص الأندلسيون والمغاربة على أداء فريضة الحج إلى البقاع المقدسة، وأن يصبح الحج من أهم الوشائج التي ربطت بين المشرق والمغرب، وعملت على توحيد الثقافة في سائر أنحاء الوطن الإسلامي، فتعرف شعراء المغرب على تراث المشرق، وتشوقوا إلى زيارة البقاع المقدسة وقبر الرسول الكريم¹، فكان العالم الأندلسي عبد الملك بن حبيب الإلبيري²، أول من صور هذا الشوق إلى البقاع المقدسة، ورحلته لقبر الرسول صلى الله عليه وسلم، يقول:

لله ذرٌّ عِصَابَةٌ صَاحِبُهَا	***	نحو المدينة نَقَطْعُ القَلَوَاتِ
حتى أَتَيْنا القَبْرَ قَبْرَ مُحَمَّدٍ	***	خَصَّ الإلهُ مُحَمَّدًا بِصَلَاةٍ
خَيْرُ البَرِيَّةِ والنَّبِيِّ المصطَفَى	***	هَادِي الوَرَى لِطَرَائِقِ الجَنَّاتِ
لما وَقَفْتُ بِقُرْبِهِ لِسَلَامِهِ	***	جَادَتْ دُمُوعِي وَأكِفَ العَبْرَاتِ
صَلَّى الإلهُ على النَّبِيِّ المصطَفَى	***	هَادِي البَرِيَّةِ كَاشِفَ الكُرْبَاتِ ³

بعد هذا توالى الإبداعات في هذا الفن، وعبر الشعراء بكل ما جادت به قرائحهم خاصة، إبان القرن السادس الهجري، فقد كانت أحوال المسلمين في الأندلس والمغرب تسير في طريق التدهور والضعف، وألحت عليهم قوى المسيحية الأوروبية التي شرعت في انتزاع الحواضر الأندلسية واحدة بعد الأخرى، فكانوا يبثون شجونهم ويفرغون همومهم في هذه الرسائل التي يتوسلون بها إلى الرسول الكريم، ويستمدون بها العون منه، وهذا هو العامل الرئيسي الذي جعل فن المدائح النبوية يعود للازدهار في

¹ ينظر، أدبيات المدائح النبوية، ص120.

² ابن حبيب، عبد الملك بن حبيب بن سليمان السلمى القرطبي، عالم الأندلس وفقهائها، كان عالما بالتاريخ والأدب، توفي سنة 238هـ، ينظر

نفع الطيب، للمقري، ج1، ص46.

³ المصدر نفسه، ج1، ص45.

الأندلس والمغرب¹، ومن أول هذه القصائد قصيدة لابن السيد البطليوسي² يخاطب فيها مكة المكرمة، وفي أخرى يتحدث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقول:

إِلَيْكَ أَفْرُ مِنْ دُنِّي وَدَنْبِي *** فَأَنْتَ إِذَا لَقَيْتُ اللَّهَ حَسْبِي
 وَزُورُهُ أَحْمَدُ الْمُخْتَارِ قَدَمًا *** مُنَايَ وَبُغَيْتِي لَوْ شَاءَ رَبِّي
 فَدُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنِّي *** تَحِيَّةً مُؤَمِّنٍ وَهُدًى مُحِبِّ
 سَأَجْعَلُ عُرْوَتِي الْوُثْقَى يَقِينِي *** لِصِحَّةِ مَا أَتَيْتَ بِهِ وَخُسْبِي
 شَهِدْتُ بِأَنَّ دِينَكَ خَيْرُ دِينٍ *** بَلَا شَكٍّ وَصَحْبُكَ خَيْرُ صَحْبٍ³

ومما زاد الاهتمام بالمدائح النبوية في المغرب العربي بدء الاحتفال بالمولد النبوي في المغرب، ابتداء من أوائل القرن السابع هجري (عصر الموحدين)، فقد بلغت المدائح النبوية ذروتها في هذا العصر، فتنوعت الأشكال الفنية للمديح النبوي ما بين القصيدة والتخميس وغيرها وبدأ الشكل الفني لقصيدة المديح يستقر معتمدا على المقدمة والموضوع والخاتمة، حتى أصبح هذا الفن لا يختلف عن شاعر المقل منهم والمكثر، ومنهم من كانوا يفردون له دواوين كاملة.⁴

وتمتاز هذه المدائح بالإطالة والاستفاضة، فقد ذكر عبد الملك المراكشي أن لأحمد بن ميمون الأشعري المالقي⁵، قصيدة بارعة طويلة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، سماها (بخلاصة الصفا في خصائص المصطفى)، يقول في مطالعها:

لأَحْمَدَ خَيْرِ الْخَلْقِ أَهْدِي تَحِيَّتِي *** مُحَمَّدَ الْأُمِّيِّ بِحُكْمٍ وَحِكْمَةٍ
 مَدَحْتُ رَسُولَ اللَّهِ وَالْمَدْحُ دُونُهُ *** وَلَوْ مَلَأَ الْمَدَائِحُ كُلَّ صَحِيفَةٍ
 فَمَاذَا يَقُولُ الْعَالَمُونَ وَرَبُّهُمْ *** كَسَاءَهُ مِنَ الْأَمْدَاحِ أَسْبَغَ حُلَّةً⁶

¹ . ينظر أدبيات المدائح النبوية ، محمود علي مكي ، ص122.

² . هو عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي، ولد ببطليوس، كان عالما بالعلوم والأدب، ينظر : أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض للمقري ، ج3 ، ص103.

³ . المصدر نفسه ، ج3 ، ص148-149.

⁴ . ينظر، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين لفوزي عيسى، دار الوفاء الإسكندرية، ط1، 2007م، ص192-193.

⁵ . هو أحمد بن محمد بن ميمون الأشعري، أبو العباس ابن السّكان، مالقي ، نزل تونس، استكثر من لقاء المشايخ، ينظر الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلّة لمحمد بن عبد الملك المراكشي، تحقيق، إحسان عباس ومحمد بن شريفة، دار الغرب الإسلامي ، تونس، ط 1، 2012م، ج1، ص696.

⁶ . المصدر نفسه، ج1 ، ص698.

ولابن خبّازة¹ قصيدة عبر فيها عما يختلجه من شوق وحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ويرى فيها أنه لا أحد يستحق المدح إلا الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، يقول في بعضها:

سَهْوْتُ بِمَدْحِ الْخَلْقِ دَهْرًا وَهَذِهِ	***	سُجُودٌ لَجَبْرِي كُلِّ مَا كُنْتُ سَاهِيًا
فَلَا مَدْحَ إِلَّا لِلَّذِي بِمَدِيحِهِ	***	تُطِيعُ إِذَا مَا كُنْتُ بِالْمَدْحِ عَاصِيًا
رَسُولٌ بَرَاهُ اللَّهُ مِنْ صَفْوِ نُورِهِ	***	وَأَلْبَسَهُ بُرْدًا مِنَ النُّورِ خَافِيًا
بِهِ وَزَنَ اللَّهُ الْخَلَائِقَ كُلَّهُمْ	***	فَأَلْفَأَهُ فِيهِمْ رَاجِحَ الْوِزْنِ وَاقِيًا
وَأُنْقَذْنَا مِنْ نَارِهِ بِظُهُورِهِ	***	وَلَوْلَاهُ كَانَ الْكُلُّ بِالْكَفْرِ صَالِيًا ²

وكما أسلفنا الذكر فإن المديح النبوي في هذا العصر عرف عدة أشكال فنية نظم فيها الشعراء ومن هذه الأشكال "المخمسات"، فقد برع فيها شعراء المغرب العربي، فهذا ابن الجنان³ قد بلغت مخمساته تسع وعشرين مخمسة، يقول في مطلعها:

اللَّهُ زَادَ مُحَمَّدًا تَكْرِيمًا
وَحِبَاهُ فَضْلًا مِنْ لُدْنِهِ عَظِيمًا
وَاخْتَصَّهُ فِي الْمُرْسَلِينَ كَرِيمًا
ذَا رَافَةَِ الْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا *** صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا⁴

ومن الأشكال الأخرى التي شاعت "المعارضات" فما تُستحسن منظومة إلا وجدناهم على منوالها ينسجون، وفي أفقها يخلقون، ولعل ما أثبتته المقري في النفع من معارضات الشعراء لمخمسة ابن الجنان السابقة خير دليل، فقد أورد ست معارضات لها، من ذلك قول إبراهيم بن سهل الإسرائيلي الإشبيلي:

جَعَلَ الْمَهْيَمِينَ حُبَّ أَحْمَدَ شِيمَةً
وَأَتَى بِهِ فِي الْمُرْسَلِينَ كَرِيمَةً
فَعَدَا هَوَاهُ عَلَى الْقُلُوبِ تِيمَةً

¹ . هو أبو عمر و ميمون بن علي بن عبد الخالق، الخطّابي المعروف بابن خبّازة ، ولد في فمس، وتوفي في الرباط، سنة 637هـ، ينظر تاريخ الأدب في المغرب العربي، لحنا الفاخوري، دار الجيل بيروت ، ط1، 1417هـ، 1996م، ص181.

² . المرجع نفسه، ص182.

³ . هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري، والمعروف بابن الجنان، ولد بمرسية، شاعر المديح النبوي، توفي ببجاية سنة 648هـ، ينظر الإحاطة ، ج2، ص349.

⁴ . ديوان ابن الجنان ، جمع وتحقيق منجد مصطفى بجمت، مطابع التعليم العالي ، بغداد ، د.ط، 1410هـ، 1980م، ص29.

وغدا هُداةً لهديهم تَتَمِيمًا *** صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا¹

وهذه المعارضات لم تقتصر على الخمسات دون غيرها، بل شملت حتى القصائد التقليدية، وأكبر دليل على ذلك بردة البوصري، التي بلغت الأفق بجمالها وحسن نظامها، فقد تنافس الشعراء في معارضتها، سواء في المشرق أو في المغرب.

وهذا مالك بن المرحل²، أبرز شعراء المديح النبوي في عصر الموحدين يقول في ميميته التي يعارض فيها بردة البوصري:

شَوْقٌ كُلَّمَا رُفِعَتْ نَارٌ عَلَى عِلْمٍ *** تَشُبُّ بَيْنَ فُرُوعِ الصَّالِّ وَالسَّلْمِ
يا أهلَ طَيْبَةِ طَابَ الْعَيْشُ عِنْدَكُمْ *** جَاوَرْتُمْ خَيْرَ مَبْعُوثٍ إِلَى الْأُمَمِ
ذَاكَ الْحَبِيبُ الَّذِي تُرَجَى شَفَاعَتُهُ *** مُحَمَّدٌ خَيْرُ خَلْقِ اللَّهِ كُلِّهِمْ³

فشعراء المديح النبوي في هذا العصر كانوا أكثر اهتماما بهذا الفن، وبدلوا جهودا في ترقيته وازدهاره، وهذا ليس على الجانب الشكلي فقط، وإنما حتى على الجانب الداخلي (المضمون)، فقد توسعوا في موضوعاته، وبرعوا في تناوله وانقطع للقول فيه شعراء كثيرون على شاكلة أبي الحسن الخزرجي الغرناطي⁴، فلا يعرف له نظم في أحد من العالمين إلا في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبرع في هذا الفن أيضا عبد الرحمن بن يخلفتن القرطبي⁵، الذي ألف ديوانا كاملا في المدح النبوي، يحتوي على قصائد عشرينيات في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أثنى عليه المقرئ وأشاد ببراعته في هذا الفن فقال: "إن له في مدح النبي صلى الله عليه وسلم بدائع قد خضع لها البيان وسلم، وأعجز بتلك المعجزات نظما ونثرا، وأوجز في تجهيز تلك الآيات البيئات فجلا سحرا".⁶ ويصعب استقصاء الشعراء الذين صرفوا شعرهم للمدح النبوي، ولكن اقتصرنا

الحديث عن أشهرهم في هذا العصر.

1 . نفع الطيب، ج7، ص445.

2 . هو أبو الحكم مالك بن عبد الرحمن بن المرحل الملقب الأندلسي السبتي، ولد في مالقة كارل بروكلمان نقله إلى العربية عبد الحليم النجار، دار المعارف بمصر، ط 3، د.ت، ج5، ص136، وينظر النبوغ المغربي في الأدب العربي لعبد الله كنون، د.ن، ط2، د.ت، ج1، ص225.

3 . الإحاطة في أخبار غرناطة، ج3، ص132.

4 . هو ضياء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يوسف بن عفيف، الخزرجي الساعدي، من أهل غرناطة، مولده ب ب يغة، رحل عن الأندلس قديما، واستقر أخيرا بالإسكندرية، ينظر نفع الطيب، ج2، ص195.

5 . هو أبو زيد عبد الرحمن بن يخلفتن بن أحمد الفازازي، عمل كاتباً لكثير من ولاة الموحدين، توفي سنة 637هـ، ينظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان، ج5، ص132.

6 . نفع الطيب، ج4، ص468.

➤ المبحث الثالث: موضوعات شعر المديح النبوي.

لقد تنوعت الموضوعات التي عالجتها قصيدة المديح النبوي، فنظم الشعراء قصائد في وصف مآثر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومناقبه ، ومعجزاته ، ونظم آخرون قصائد يشوقون فيها إلى زيارة مقامه الكريم ، وأخرى يتبركون فيها بآثاره الكريمة ، ولكن هذه القصائد تتصل ببعضها اتصالاً وثيقاً لأنها تدور جميعاً حول موضوع واحد هو مدح النبي عليه أفضل الصلاة والسلام.

أ. وصف مناقب الرسول الكريم ومعجزاته:

تدور أغلب معاني المديح النبوي حول وصف مناقب الرسول صلى الله عليه وسلم، والإشادة بمعجزاته الباهرة، ويفيض الشعراء في الحديث عن هذه المناقب والمعجزات، وقد يتحدثون عن أوصاف الرسول الحسينية، ويمزجون هذه الأوصاف بأوصافه المعنوية ، فيشيدون بزهده وعفته وكرم أخلاقه¹، ومن ذلك قول أبي العلاء القرطبي²:

طَلَّقُ الْحَيَا مَنَهْلًا لِلنَّائِلِ *** أَنحَى عَلَى الدُّنْيَا بَرُّ هَدٍ كَامِلِ
هُوَ مَثَلُ الدُّنْيَا بَظِلِّ زَائِلِ *** لَمْ تُرْضِهِ حَالُ التَّعِيمِ الحَائِلِ³

وكانت معجزة الإسراء و المعراج منبعاً ثراً يستمد منه الشعراء مدائحهم، ولابن سهل الإشبيلي خمسة تدور حول معجزة الإسراء ، وبعض معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم الأخرى، يقول فيها:

إِحْتَتَتْ فِي السَّبْعِ الطَّبَاقِ بُرَاقُهُ
وَالْأَرْضُ وَاجِمَةٌ تَخَافُ فِرَاقَهُ
سُبْحَانَ مَنْ أَدْنَى سَرَاهُ فَسَاقَهُ
شَخْصًا عَلَى مَلِكِ المَلُوكِ كَرِيمًا *** صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا⁴

وهذا الضرب من المدائح النبوية الذي يعتمد على النص القصصي قد هيا لظهور قصيدة **المولد النبوي** وقصائد السير في هذا العصر، فأصبح موضوعاً من مواضع المديح النبوي برع فيه كثير من

¹ . ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، فوزي عيسى ، ص 196

² . هو إدريس بن محمد بن محمد بن موسى الأنصاري القرطبي، كانت له مشاركة في النظم والنثر، توفي آخر سنة للمراكشي ، ج 1 ، 597.

³ . نفع الطيب، ج 7 ، ص 443.

⁴ . المصدر نفسه، ج 7 ، ص 446.

الشعراء، على شاكلة محمد بن أبي بكر العطار¹، والذي برع في المولديات والمدائح وجمعها في كتاب (دُرر الدرر)، يقول في بعض أبياته:

أنوارُ أحمدَ حُسْنُهَا يتلألُ	***	المصطَفَى بِحُلَى الكَمَالِ يملأُ
الشَّمْسُ تَحْجَلُ وهو منها أضوءُ	***	النُّورُ منه مُقَسَّمٌ ومُجَزَّؤُ
صلُّوا على المسكِ القَتِيقِ الأطيبِ	***	صلُّوا على الوَرْدِ المعينِ الأعذبِ
صلُّوا على نُورِ نَوَى في يَتْرِبِ	***	صلُّوا عليه بمشْرِقٍ ومَغْرِبِ ²

ويتصدر ابن الجنان الأنصاري، شاعر المديح النبوي، شعراء عصره بغزارة شعره خاصة في مناسبة المولد النبوي، ويكثر من الصلاة والتسليم على النبي الكريم، يقول:

صلوا على خَيْرِ البرِيَّةِ حَيِّمَا	***	وأجلُّ من حازَ الفخارَ صَمِيمَا
صلُّوا على نورٍ تجلَّى صُبْحُهُ	***	فَجَلَا ظَلَامًا للضَّلَالِ بَهِيمَا
صلُّوا على هذا النبيِّ فَإِنَّهُ	***	مَنْ لم يَزَلْ بالمؤمنينَ رَحِيمَا
يا أَيُّهَا الرَّاجُونَ منه شَفَاعَةٌ	***	صلُّوا عليه وسلِّموا تسليمًا ³

ب. الحجازيات والشوق لزيارة مقامه الطيب:

هذا موضوع قديم متجدد، متعلق بفريضة أداء الحج وشعر الاستنجاد وما حل بالنفس من الشيب والسقم، وما يشعر به من الشوق والهيام لزيارة ضريح الرسول صلى الله عليه وسلم، والأماكن التي شهدت مهد الرسالة⁴، ومن الذين أفاضوا في وصف أشواقهم لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ومقامه الطاهر، والطوف بالبيت العتيق، أبو الحسن الرعيني⁵، حين يقول:

حَنِينِي إلى البَيْتِ العَتِيقِ شَدِيدُ	***	وشوقِي إلى وادي العَقِيقِ يَزِيدُ
فيا ليت شِعْري هلْ يُتَاخَ إِلَيْهِمَا	***	وُصُولُ فيَحْظَى بالوَصَالِ عَمِيدُ

¹ . هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد، بن أحمد بن أبي بكر العطار الجزائري من جزائر ص480.

² . تاريخ الأدب الجزائري، محمد الطمار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، 2007م، ص150.

³ . ديوان ابن الجنان الأنصاري، ص28.

⁴ . ينظر الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، ص199.

⁵ . هو أبو القاسم بن فيزة بن خلف بن أحمد الرعيني، الشاطبي المقري، ولد بشاطبة سنة 538هـ. وتوفي بالقاهرة سنة 590هـ.، ينظر نفع الطيب، ج2، ص196-197.

وهلْ أُنثِي نَحْوَ الرَّسُولِ لَطِيئَةً *** فَيَدْنُو لِقَلْبِي مَن مِّنْهُ بَعِيدُ
وَأَلْصِقُ خَدِّي مِنْ ضَرْبِ مُحَمَّدٍ *** بَحِيثُ تَلَاقَتْ فِي نَرَاهُ خُدُودُ¹

وينهج حازم القرطاجني²، نهجا آخر في مديحه النبوي وتشوقه إلى زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، فيلتفت إلى المعلقات، فيأخذها ويصرف معناها إلى المديح النبوي، حيث نراه يأخذ شطرا من كل بيت ويضع إلى جانبه شطرا من عنده، وذلك في قوله:

لَعَيْنِكَ قُلْ إِنْ زُرْتِ أَفْضَلَ مُرْسَلٍ *** قَفَا نَبِكْ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ
وَفِي طَبِيبَةٍ فَاَنْزِلْ وَلَا تَعْشْ مَنْزِلًا *** بِسَقَطِ اللَّوَى بَيْنَ الدُّخُولِ فَحَوْمَلِ
وَزُرْ رَوْضَةً قَدْ طَالَمَا طَابَ نَشْرُهَا *** لَمَّا نَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمَّالٍ³

أما ابن الأبار فكان ذا لوعة واشتياق لزيارة مقام الرسول الكريم، فبعث هذا الشوق مع الححيح، حيث يقول في بعض أبياته:

يَا زَائِرِينَ الْقَبْرِ قَبْرَ مُحَمَّدٍ *** بِشَرَى لَكُمْ بِالسَّبْقِ فِي الزَّوَارِ
فَوَزُوا بِسَبْقِكُمْ وَفُوهُوا بِالَّذِي *** حُمِّلْتُمْ شَوْقًا إِلَى الْمَخْتَارِ⁴

ج. التوسل إلى الرسول الكريم والتبرك بآثاره:

لقد أكثر الشعراء من التوسل إلى الرسول الكريم والتشفع به، وتشغل هذه القصائد حيزا كبيرا من موضوع المدائح النبوية، ولابن الجنان قصائد كثيرة في هذا الضرب، فمن ذلك قوله في إحدى مشفعاته متوسلا إلى الرسول الكريم:

يَا أَرْحَمَ الْخَلْقِ يَوْمَ الْحَشْرِ وَالنَّدَمِ *** أَرْحَمَ عبيدِكَ يَا ذَا الطُّولِ وَالنَّعَمِ
إِنِّي تَوَسَّلْتُ بِالْمَخْتَارِ مَلْجَأَنَا *** الطَّاهِرِ الْمُجْتَبَى مِنْ خَيْرَةِ الْأُمَمِ
فَهُوَ الشَّفِيعُ الَّذِي أَرْجُو النَّجَاةَ بِهِ *** مِنَ الْجَحِيمِ إِذَا الْكُفَّارُ كَالْحِمَمِ⁵

ومن الذين توسلوا إلى الرسول الكريم راجين منه أن يكون لهم شفيعا يوم القيامة، أبو زيد الفزازي، الذي توسل إلى الرسول ليشفع له لكثرة ذنوبه، يقول:

¹ . الدليل والتكملة، للمراكشي، ج5، ص364.

² . هو أبو الحسن حازم بن محمد بن حسن بن حازم، الأنصاري القرطاجني، ولد في قرطاج سنة 608هـ، توفي بتونس سنة 684هـ، ينظر فوات الوفيات، لابن شاکر، ج11، ص271.

³ . ديوان حازم القرطاجني، تحقيق عثمان الكعاك، بيروت، د.ط، 1964م، ص89.

⁴ . ديوان ابن الأبار، قراءة عبد السلام المراس، ص463.

⁵ . نفع الطيب، ج7، ص505.

يا سيّد الرُّسُلِ المكيّنِ مكانَهُ	***	ومُقَدِّمًا وهو الأخيرَ زمانَهُ
ناداكَ عبدٌ أخَرْتَهُ ذُنُوبُهُ	***	والشُّوقُ تَلَفَحَ قلبَهُ نيرانَهُ
وقَدتْ عليكِ رِكابُ أربابِ التُّقى	***	والمذنبُ الخطّاءُ كَفَّ عِنانَهُ
لكن حَبَّكَ شافِعٌ ومَشَقُّعٌ	***	يَعشَ حُبَّكَ يُمنَهُ وأمانَهُ ¹

كما نظم الشعراء مقطعات كثيرة في وصف نعل الرسول صلى الله عليه وسلم تبركا به وتوسلا بصاحبه، ولابن الأبار مقطعات كثيرة في التبرك بآثار الرسول الكريم ، من ذلك قوله:

لمثالِ نعلِ المصطفى أصفى الهوى	***	وأرى السَّلُوَ خَطِيئَةً لَنْ تُغفَرَ
وإذا أصافحِه وأمسحُ لا ثَمًّا	***	أركانَه فمِعزِّزًا ومُوقِّرا
لي أسوءُ بالعاشقين وقصدِهم	***	الكرى لثمُّ الطُّلُولِ لأهلِهِنَّ تذكِّرا ²

ولم يتفرد الرجال وحدهم في هذه المدائح ، وإنما حتى النساء كانت لهن بصمة في هذا الفن، وهذا خير دليل على أن فن المديح النبوي بلغ أوجه في هذا العصر، ومن الشاعرات اللواتي مدحن الرسول صلى الله عليه وسلم وتبركن بآثاره، سعدونة أم السعد بنت عصام الحميري³ ، التي كانت تأمل بتكريمها لتمثال النعل الدخول إلى الجنة والسقي بكؤوس من السلسبيل، تقول:

سألثُمُ التَّمثالَ إذ لم أجد	***	لثَمِّ نعلِ المصطفى من سَبيل
لعلني أحظى بتقبيلِه	***	في جَنَّةِ الفِرْدوسِ أسنى مَقيل
في ظلِّ طُوبى ساكنًا آمنًا	***	أسقى بأكْواسِ السَّلَسبيل ⁴ .

ويبقى مدح النبي صلى الله عليه وسلم والثناء عليه غاية كل شاعر، وهو يتوسل بمدحه إلى الله تعالى أن يعفو عنه، مع اعتراف الشاعر أنه مهما أوتي من ملكة شعرية، وقدرة فكرية ومهما أوتي من بلاغة وفصاحة فإنه يبقى عاجزا عن الإحاطة بمدح النبي الكريم.

¹ أزهار الرياض ، ج4 ، ص32.

² المصدر نفسه ، ج2 ، ص224.

³ هي أم السعد بنت عصام الحميري، من أهل قرطبة تعرف بسعدونة، توفيت سنة 460هـ ، ينظر الذيل والتكملة ، ج2 ، ص148.

⁴ نفع الطيب ، ج4 ، ص166.

إن الحديث عن شعر المديح النبوي لا يكتمل إلا بدراسة جوانبه الفنية من وزن وموسيقى ولغة وصور شعرية، وهذه العناصر ليست منفصلة عن مضمون الشعر ومحتواه، لأن قيمة العمل الفني لا تكتمل إلا باتحاد أجزائه، وعن هذه الجوانب الفنية سيكون حديثنا في هذا الفصل إن شاء الله .

المبحث الأول: اللغة:

تعد اللغة عنصراً أساسياً في تكوين القصيدة فهي: "وسيلة الشاعر في التعبير والخلق، وهي موسيقاه وألوانه ومادته الخام التي يخلق منها كائناً ينبض بالحياة والحركة"¹.

إن موضوع القصيدة وصورها وموسيقاها لا تستطيع وحدها أن تعطي القصيدة قيمتها النهائية، ولكن "العلاقة التي تنشأ بين اللغة، وبين التجربة الشعورية والفروق الدقيقة التي تنشأ من هذه العلاقة، هي التي تحدد قيمة العمل الفني"²

وشعراء المديح النبوي في المغرب العربي، إبان هذا العصر، أدركوا قيمة هذه اللغة وكانوا بارعين في السيطرة على عناصرها وتوظيفها في قصائدهم، وقد تجلت هذه البراعة وحسن الاختيار في الألفاظ التي تم انتقاؤها بعناية، وفي الأساليب التي صيغت في قالب جميل، فكانت الدراسة على محورين هما:

أ. الألفاظ:

إن مادة اللغة، المفردات والألفاظ، لذا أطلق على المهتمين بالمفردات وشرحها (اللغويون). ولأهمية الألفاظ في بناء البيت الشعري، حيث تمتاز بأنها ذات مداولات واسعة لا تنحصر بمداولاتها المعجمية،³ فقد اعتنى شعراء المديح النبوي في هذه الفترة بألفاظهم، فأجادوا اختيارهم وتطويرها لخدمة موضوع المديح وتعريف الناس بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، وصفاته وأخلاقه. ومن أبرز ما نلاحظه على ألفاظ المديح النبوي في هذه المرحلة ما يلي:

1. السهولة والوضوح: من أولى السمات التي تواجهنا، سهولة الألفاظ التي ربما تؤدي بالتالي إلى

سهولة المعنى ووضوحه، ومرد ذلك إلى حرص الشعراء على استقطاب الألفاظ الفصيحة البعيدة عن الغرابة والتعقيد، أو العامية المبتذلة إلا قليلاً، وأمثلة ذلك كثيرة، نورد منها قول ابن الجنان سيد المديح النبوي في هذا العصر:

¹ . قضايا النقد الأدبي والبلاغة، محمد زكي العشماوي ، الإسكندرية ، د.ط ، 1967م ، ص31.

² . المرجع نفسه ، ص34.

³ . ينظر نظرات في التراث اللغوي العربي، عبد القادر المهيري ، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1993م ، ص184.

صَلُّوا عَلَى هَذَا النَّبِيِّ فَإِنَّهُ *** مَن لَمْ يَزَلْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا
صَلُّوا عَلَى الرَّكَابِيِّ الْكَرِيمِ مُحَمَّدٍ *** مَا مِثْلُهُ فِي الْمُرْسَلِينَ كَرِيمًا
كَمْ آيَةٌ قَامَتْ تُصَدِّقُ أَحْمَدًا *** حَتَّى الْجَمَادُ أَجَابَهُ تَكْلِيمًا¹

فالشاعر عمد إلى التعامل مع الألفاظ السهلة، التي تخلوا من الغرابة والتعقيد، وتدرجها العامة بفهمها البسيط، فالكلمات مثل (الرحيم، الزاكي، الكريم، الجماد...) كلها ألفاظ يفقهها عامة أفراد المجتمع الإسلامي في تلك الفترة، وهي متداولة بينهم، كما تتجلى مثل هذه السهولة في مقطوعة لابن الصباغ يعدد فيها صفات الرسول صلى الله عليه وسلم، يقول في بعضها:

يَا شَادِيًّا يَشْدُو بِمَدْحِ مُحَمَّدٍ *** كَرَّرَ فَدَيْتِكَ مَدْحَهُ يَا شَادِي
كَرَّرَ عَلَى الْأَسْمَاعِ ذِكْرَ مُحَمَّدٍ *** فَلذِكْرِهِ بَرْدٌ عَلَى الْأَكْبَادِ
هُوَ بَحْرٌ جُودٍ فَاضَ عَذْبُ نَوَالِهِ *** وَصَفَتْ مَوَارِدُهُ لَدَى الْوُرَادِ²

لقد صاغ الشاعر بلغته الشعرية ألفاظا تتلاءم مع موضوع المديح النبوي، فذكر بعض صفات الرسول صلى الله عليه وسلم، مثل: أنه عليه الصلاة والسلام (بحر جود، برد على الأكباد) بألفاظ شائعة متداولة.

لقد كانت السهولة في الألفاظ حاضرة عند جميع شعراء المديح النبوي، في هذه الفترة، وغالبة على أشعارهم، وإن تخللتها بعض الألفاظ الصعبة الفهم، الغريبة والمعقدة بعض الشيء، ومن شواهد ذلك نذكر بعض الأبيات لابن العطار، يقول فيها:

صَلُّوا عَلَى مَنْ نُورُهُ يَتَبَلَّجُ *** صَلُّوا عَلَى مَنْ عَزُّهُ يَتَأَرَّجُ
حَسَنَاتُهُ حَيَّيَاتُهُ تَسْتَرْجِعُ *** حَتَّى الْقُلُوبُ بِجَبِّهِ تَتَرَجَّعُ
نِعْمَاهُ جَمْتُ إِذْ تَعُمُّ كَرِيمًا *** صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا³

¹ . نفع الطيب ، ج7 ، ص640

² . أزهار الرياض ، ج2 ، ص248.

³ . نفع الطيب ، ج7 ، ص481.

فألفاظ مثل (يتبلج، حثياته، تترجح، جمت) غامضة بعض الشيء، عسيرة الفهم لكن هذه الألفاظ الغامضة، لم تكن حاضرة بقوة، لذلك لم يكن تأثيرها قويا، وإنما وجدت منشورة في ثنايا بعض القصائد، وإنما الغالب هو السهولة والوضوح.

2. التكرار: ذكر اللفظة مرتين فأكثر، وهذا ما عهد عند العرب قديما، فسنن العرب التكرير والإعادة إرادة الإبلاغ بحسب العناية بالأمر¹، فعناية الشاعر بكلمة معينة أو عبارة تدفعه إلى تكرارها، لذا ترى نازك الملائكة أن: "التكرار في حقيقته إلحاح على جهة هامة في العبارة يعني بها الشاعر أكثر من عنايته بسواها"² فالتكرار إذن من أساليب العربية التي تسلط الضوء على جزء هام من الكلام، ويأتي في الأصل لغرض التأكيد، إذا تطلب المقام ذلك، وقد يخرج إلى أغراض أخرى بحسب السياق.

وشعر المديح النبوي من الأشعار التي تحتاج إلى التكرار سواء اللفظي أو المعنوي وذلك لتأكيد بعض المفاهيم التي قد تكون غائبة عن البعض، أو التذكير، وقد انقسم التكرار في شعر المديح النبوي خلال هذا العصر إلى ثلاثة أقسام:

✓ **تكرار الكلمات**: يعد هذا النوع من التكرار من السمات البارزة لشعر المديح النبوي في هذا العصر، وذلك لكثرة تناول الشعراء له، فلا تكاد تخلو أبياتهم منه، وأمثلة ذلك كثيرة، نذكر منها قول أبي زيد الفاززي:

كم آيةً بالصدِّقِ كانَ ظُهُورُهَا *** كم آيةً بالسَّبِّقِ كانَ نُزُوهُهَا³

فقد تكررت كلمة (آية)، وهي الدليل من عند الله تعالى على صدق المصطفى عليه الصلاة والسلام، وتقدمه على جميع الخلق، والغرض من هذا التكرار، هو الإقرار بحقيقة علو منزلة رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، كذلك نلفي هذا التكرار عند ابن خبّازة، وذلك في قوله:

رسولُ بَرَاهُ اللهُ من صَفْوِ نُورِهِ *** وألبَسَهُ بُرْدًا مِنَ النُّورِ ضَافِيًا
وما زالَ ذاكَ النُّورُ من عَهْدِ آدَمَ *** يُنِيرُ به اللهُ العُصُورَ الحَوَالِيَا⁴

¹ . ينظر الصحاحي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها لأحمد بن فارس الرازي ، تحقيق عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت، ط 1، 1993م، ص213.

² . قضايا الشعر المعاصر ، نازك الملائكة ، دار العلم للملايين ، ط 5 ، 1978م ، ص276.

³ . نفع الطيب، ج 7، ص508.

⁴ . تاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، ص 481.

كرر الشاعر كلمة (النور)، وغرض هذا التكرار هو التأكيد والإقرار، فالشاعر يقر بأن الرسول صلى الله عليه وسلم، نور بعثه الله ليجلي الظلمات، وتأكيدا ليتيقن الناس بهذه الحقيقة.

✓ **تكرار الأفعال:** وردت عبارات عديدة في شعر المديح النبوي ككرر الشاعر فيها (الأفعال)، لما لها من قيمة كبيرة في تثبيت المعنى وتقوية البيت الشعري، ونضرب بعض الأمثلة على ذلك، كقول ابن الجنان:

أرجاء مَكَّةَ زَمَزَمًا وَحَطِيمًا	***	صَلُّوا عَلَى مَنْ شَرَفَتْ بِوُجُودِهِ
نَهَجًا فِي الدِّينِ الحَنِيفِ قَوْمًا	***	صَلُّوا عَلَى هَادٍ أَرَانَا هَدِيَهُ
مَا مِثْلُهُ فِي المرْسَلِينَ كَرِيمًا ¹	***	صَلُّوا عَلَى الرَّزَاكِيِّ الكَرِيمِ مُحَمَّدٍ

الشاعر هنا ككرر فعل الأمر (صلوا) ، يأمر الناس بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وغرض هذا التكرار التأكيد على عظمة هذه الصلاة، وإقرار بفضل المصطفى صلى الله عليه وسلم، ومثل هذا التكرار نلقيه عند أبي زيد الفاززي في أبيات له يتشوق فيها إلى زيارة مقام الرسول الكريم عليه الصلاة والتسليم، يقول في بعضها:

بِاللَّحْظِ قَبْرِكَ أَنْ تَزُورَ بَنَائِهِ	***	كَتَبَ الكِتَابَ لَعَلَّهُ إِنْ لَمْ يَزُرْ
إِنْ لَمْ يَزُرْكَ لَدَنْبِهِ جُثْمَانُهُ ²	***	مَنْ يَزُورُكَ خَطُّهُ وَكَلَامُهُ

لقد تكرر الفعل المضارع (يزور) أربع مرات في هذين البيتين، وهذا يدل على مدى تشوق الشاعر وحنينه إلى زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى وإن قصرت هذه الزيارة على رسالة فقط، فجاء تكراره تأكيداً على رغبته.

✓ **تكرار العبارات:** لقد عمد شعراء المديح النبوي في هذه الفترة إلى تكرار بعض العبارات بعينها لاتصالها بجوهر الموضوع، مثل عبارة (صلو عليه وسلموا تسليماً) وهذا ما نجده عند جل شعراء المديح النبوي، ونذكر منهم، ابن سهل الإشبيلي، الذي يقول في خمسته:

الله أَوْضَحَ فَضْلُهُ فَتَوَضَّحَ
والله بَيَّنَّ حُبَّهُ فِي الصُّحَى

¹ . ديوان ابن الجنان ، تحقيق مصطفى مجت ، ص28.

² . أزهار الرياض للمقري ، ج4 ، ص32.

والجِدْعُ حَنَّ له هَوَى فترْتَحَا
 والماءُ فاضَ بكفِّه تَسْنِيمًا ***
 صلُّوا عليه وسلِّموا تسليماً
 الشَّافِعُ المتوسِّلُ المتقبَّلُ
 القَانِئُ المدتَّنُّ المزَّمَلُ
 وافي وظهْرُ الأرضِ داجٍ مُمَحَّلُ
 فجَلَا البهيمَ به وأروى الهيمَا ***
 صلُّوا عليه وسلِّموا تسليماً¹.

هذه العبارة تكررت من البداية حتى النهاية، ولعل الشاعر كرر هذه العبارة امتثالاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾²، وتأكيداً منه على وجوب هذه الصلاة على رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام. كذلك تكررت هذه العبارة عند ابن العطار في قصيدته المولدية التي يقول فيها:

ما زالَ في الرُّسُلِ الكِرَامِ كَرِيمًا ***
 صلُّوا عليه وسلِّموا تسليماً
 اللهُ عَظَمَ قَدْرُهُ تَعْظِيمًا ***
 صلُّوا عليه وسلِّموا تسليماً
 وتَنَعَّموا بِصَلَاتِكُمْ تَعْنِيمًا ***
 صلُّوا عليه وسلِّموا تسليماً³.

فهذه العبارة تكررت هنا لنفس الغرض الذي تقدمه، فالشاعر يريد إظهار عظمة ومكانة الرسول صلى الله عليه وسلم، عند الخالق عز وجل، وعند الأمة الإسلامية جمعاء. ولم تكن هذه العبارة الوحيدة التي ركز عليها الشعراء، وإنما هناك عبارات أخرى تكررت في أشعارهم ولكن بنسب ضئيلة، مثل عبارة (وارحموا صبًّا) التي وجدناها عند بعض الشعراء كابن الصباغ، الذي يقول في بعض أبياته:

فارحَموا صبًّا مُعَنِّي ***
 قلبه يُذْكَى غَلِيلاً
 وارحَموا صبًّا مَهِينًا ***
 كم شكا البينَ سِينَا
 وشُؤُونُ المَقْلَتَيْنِ ***
 تَسْكُبُ الدَّمْعَ المَعِينَا⁴

¹ . نفع الطيب ، ج 7 ، ص 447.

² . سورة الأحزاب، الآية "56".

³ . نفع الطيب ، ج 7 ، ص 471.

⁴ . أزهار الرياض، ج 2 ، ص 231.

فالشاعر كرر هذه العبارة (فارحموا صبا)، توكيدا منه على مدى شوقه، وتعلقه بزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، ويصف حالته التي آل إليها جراء هذا البين. ولقد ركزت الحديث عن أكثر العبارات تكرارا عند شعراء المديح النبوي، في المغرب العربي إبان هذه الفترة، ولم أحصيتها كلها.

هذا بالنسبة إلى أهم السمات التي تميزت بها ألفاظ شعر المديح النبوي ، لقد لاحظنا كيف نقى الشعراء ألفاظهم، كيف لا وهم يمدحون خير خلق الله، محمد صلى الله عليه وسلم، يضاف إلى ذلك سمة الألفة ، التي تجعل الشاعر قريبا من العامة، وكان التكرار من الوسائل التي ساعدت الشعراء على تحقيق هذه الألفة، بالإضافة إلى أساليب النداء والأمر والاستفهام والتمني التي سيلي الحديث عنها بمشيئة الله.

ب. الأساليب:

الأسلوب هو طريقة الأديب في عرض أفكاره ، يقول أحمد الشايب: " الأسلوب هو فن من الكلام يكون قصصا أو حوارا أو تشبيها أو مجازا أو كناية ، تقريرا أو حكما أو أمثالا" ¹ ، فهذا التعريف جمع بين دفتيه جميع ما ينطق به الإنسان من كلام وصبغه بصبغة فنية.

ومن الجدير بالذكر أن الأسلوب يعتمد على إقرار المعنى في النفس وترتيبه في العقل قبل اللفظ وتركيبه في جمل ومفردات، يقول صاحب القول الأول في دراسته للأسلوب: "أن الأسلوب معان مرتبة قبل أن يكون ألفاظا منسقة، وهو يتكون في العقل قبل أن ينطق به اللسان أو يجري به القلم". ²

هذا بالنسبة إلى الأسلوب في الأدب عموما، أما في الشعر فهو يرتبط ارتباطا وثيقا بالعاطفة التي تعد من أهم الخصائص المميزة للشعر عن غيره، وشعر المديح النبوي يركز على هذه العاطفة الصادقة القائمة على حقيقة حب الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن هذه الأساليب :

1. **أسلوب النداء:** ولعله أكثر الأساليب حضورا في شعر المديح النبوي في هذه الفترة، لكنه اختلف من شاعر لآخر، فهذا ابن الصباغ أكثر من إيراد هذا الأسلوب حتى إنه يتكرر عنده حتى في البيت الواحد، فيقول في إحدى مقطوعاته:

¹ . الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية ، لأصول الأساليب الأدبية ، أحمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية، ط 1، 1976م ، ص 41.

² . المرجع نفسه ، ص 40.

هَبَّ النَّسِيمُ بِطَيْبِ ذِكْرِ الْهَادِي *** فَتَأَرَّجَتْ نَفَحَاتُ عَرَفِ النَّادِي
يا شَادِيًّا يَشْدُو بِمَدْحِ مُحَمَّدٍ *** كَرَّرَ فِدَيْتَكَ مَدْحَهُ يا شَادِي¹

فالشاعر ينادي المتغني بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم، ويطلب منه أن يعيد على مسامعه هذا المدح ويكرره لأنه كالنسيم الطيب.

أما أبو زيد الفازاري، فقد توجه بندائه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، بمختلف أدوات النداء، كله يجيب دعوته، فيقول:

يا سَيِّدَ الرُّسُلِ الْمَكِينُ مَكَانَهُ *** وَمَقْدَمًا وَهُوَ الْأَخِيرُ زَمَانَهُ
ناداك عَبْدًا أَخَرْتَهُ ذَنْبُهُ *** وَالشَّوْقُ تَفْلَحُ قَلْبَهُ نِيرَانُهُ²

حوى البيتان على أسلوب النداء لكن بصيغتين مختلفتين؛ في الأول بأداة النداء (يا) أما الثاني فبكلمة النداء المباشر (ناداك) ، ينادي بهما الشاعر حبيبه صلى الله عليه وسلم، يصف له نيران شوقه لزيارته، لكن ذنوبه تمنعه من هذه الزيارة.

2. **أسلوب الأمر:** الأمر هو "طلب القيام بالفعل على وجه الاستعلاء"³، وهو يقابلنا في الكثير من أبيات المديح النبوي في هذا العصر، ولكن ليس بصيغة السلطوية التي تنبع من نفس صارمة متسلطة، وإنما الأمر الخفيف الذي لا تكليف ولا إلزام فيه، وإنما طلب يحمل بين طياته معنى النصيحة والموعظة،⁴ وهو تكليف ذو منفعة، وهذا ما نلمسه في الكثير من هذه الأبيات، ومن ذلك قول ابن الجنان:

صَلُّوا عَلَى أَعْلَى فُرَيْشٍ مَنْزِلًا *** بِدَارِهِ خَيَّمَتِ الْعُلَا تَحِيْمًا
صَلُّوا عَلَى هَذَا النَّبِيِّ فَإِنَّهُ *** مَنْ لَمْ يَزَلْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا⁵

فالأمر في قوله (صلوا) يراد به التحفيز والترغيب، وطلب المبادرة بهذه الصلاة في كل وقت وحين، وقد تكرر هذا الأمر في الأبيات جميعا، ليبين قدر الصلاة على الرسول عليه الصلاة والسلام.

¹ . أزهار الرياض ، ج 2 ، ص 248.

² . المصدر نفسه، ج 4، ص 31.

³ . البلاغة الواضحة ، علي الجارم ومصطفى أمين، تحقيق علي بن نايف الشحود، دار المعارف الكويت ، ط 2 ، 1999م ، ص 179.

⁴ . علم المعاني، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، مصر، د. ط ، 1985م ، ص 78.

⁵ . نفع الطيب، ج 7، ص 440.

الأمر الغالب في شعر المديح النبوي هو الصلاة والسلام على المصطفى وصلى الله عليه وسلم، فقد ألفتته لدى غالبية الشعراء، هناك من الشعراء من خرج عن هذا الأمر لكن لا يفتأ يعود إليه ، مثلما نجده عند ابن المرحل في مولديته التي يقول فيها:

فاعرِفْ لهذا الشَّهرِ حقَّ قدره *** فلقد غَدَا بينَ الشُّهورِ كريماً
شَهْرٌ كريمٌ جاءَ فيه مُحَمَّدٌ *** صلوا عليه وسلِّموا تسليماً¹

فالأمر الأول في قوله (فاعرف) يعني التأكد واليقين بعظمة اليوم الذي ولد فيه المصطفى صلى الله عليه وسلم، فتعطيه حقه وقدره.

أما الأمر الثاني في قوله (صلوا وسلموا)، فهو تذكير بالواجب اتجاه الرسول صلى الله عليه وسلم.

3. أسلوب الاستفهام: يعد الاستفهام من الأساليب التي تتعمق في النفس وتبحث في أسرارها، ذلك لأنه: "طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل بأداة خاصة"².

ومن شأن الاستفهام أن يجعل الإنسان يبحث عن الإجابة، ويتطلب ذلك النظر والتأمل وإعمال العقل، لذا وجد فيه شعراء المديح النبوي خير معين، في جعل الناس يتدبرون في صفات الرسول صلى الله عليه وسلم، ومعجزاته، وفي شفاعته يوم القيامة، ومن هذا نذكر قول ابن الجنان:

أَيذهبُ يومٌ لم أكْفِرْ ذُنُوبَهُ *** بذكرِ شفيعٍ من الذُّنُوبِ مُشَفِّعِ
ولم أَقْضِ في حَقِّهِ الصَّلَاةَ فَرِيضَةً *** على ذِي مَقَامٍ في الحِسابِ مُرْفَعِ³

فالشاعر هنا لا يسأل عن شيء وإنما هو في موضع الدعاء، فهو بالصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم، يكفر عن ذنوبه ويمحوها.

أما ابن جبير⁴ فيجذبه النور المعبق بالمسك، وهو على مشارف طيبة، فيتساءل عن سبب هذا النور، فيقول:

¹ .الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى ، محمد بن تاويت ، ج 1 ، ص343.

² . علم المعاني ، عبد العزيز عتيق ، ص88.

³ . ديوان ابن الجنان ، تحقيق مصطفى بجمت ، ص25.

⁴ . هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكنايني، ولد في بلنسية سنة 540هـ، درس على يد أبيه علوم اللغة والدين ، كان من هواة السفن في البلاد، توفي سنة 614هـ، ينظر الموجز في الأدب العربي وتاريخه ، حنا الفاحوري ، دار الجليل ، بيروت ، ط3، 2003م ، ج 3 ، ص104.

أقولُ وقد آنستُ بالليل نازًا *** لعلَّ سِراجِ الهدى قد أنارًا
وإلا فَمَا بالُ أفقِ الدُّجى *** كأنَّ سَنَا البرقِ فيه قد استطارًا؟
وهذا التَّسليمُ شدًّا المسكِ قد *** أُعيرَ أم المسكُ منه استعارًا؟¹

فالشاعر هنا يتساءل عن هذا النور الذي، جلى الظلام الدامس، كأنه برق لاح في الدجى، كما يتساءل عن المسك الذي يعبق المكان، والشاعر موقن أن هذا النور وهذا المسك مصدره واحد لا غير، هو مقام الرسول صلى الله عليه وسلم.

ومثل هذا الاستفهام نجده عند مالك بن الرحل، وذلك في قوله:

أيا عتقاء المصطفى إنَّ حقَّه *** عظيمٌ فكونوا أكرمَ العتقاءِ
أما كنتم من قبله في شقاوةٍ؟ *** فلولاهُ هل كنتم من السُّعداءِ؟
أترجونَ في يومِ القيامةِ غيرهُ *** إذا قيلَ هل للنَّاسِ من شُفعاءٍ؟²

الشاعر باستفهامه هذا في كلا البيتين، إنما يريد التذكير بحقيقة، هي أن الناس كانوا يعيشون في شقاوة، فتحولوا إلى السعادة بمجيء المصطفى صلى الله عليه وسلم، وأنه عليه الصلاة والسلام هو الشفيع الوحيد يوم القيامة.

4. **أسلوب التمني:** هو "طلب الشيء المحبوب الذي لا يرجى حصوله، إما لكونه مستحيلًا، أو لكونه بعيد الحصول"³، فالتمني إذن يكون في الأمور المستحيلة، كما يكون في الأمور الممكنة.

وشعراء المديح النبوي في هذا العصر استخدموا التمني، خاصة في الأمور القريبة إلى الحدوث أو التي يمكن حصولها، والشواهد على ذلك كثيرة، نذكر منها أبياتا للفاززي يقول فيها:

شوقِي إلى خَيْرِ الخَلْقِ مُتَّصِلِ *** يا لَيْتَ شعري هل أدنو وهل أصِلِ
وهل أزورُ ثراهُ وهو خيرُ ثرى *** أستنشِقُ المسكُ منه ثم أكتحلُ⁴

¹ الإحاطة، ج 2، ص 235.

² الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، ج 1، ص 340.

³ دراسات في علم المصنوع، عبد الواحد حسن الشيخ، مكتبة الإشعاع الفنية، مصر، د. ط، 2000 م، ص 86.

⁴ أزهار الرياض، ج 4، ص 33.

استخدم الشاعر العبارة المشهورة لدى الشعراء (ليت شعري) لكنها لم ترد بكثرة في شعر المديح النبوي، على غير عاداتها في الأشعار الأخرى، والشاعر هنا يتمني زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، ليستنشق مسك هذا الثرى الزكي ويكتحل به، وهذا ليس من المستحيلات وإنما أقرب إلى الحدوث ، هذا بالنسبة إلى التمني، باللفظ الدال عليه في الأصل، وهناك بعض الألفاظ الأخرى التي تدل على التمني ، منها (لعل، هل، ولو، وعسى)، وقد أكثر شعراء المديح النبوي من استخدام (هل) كما لاحظنا في البيتين السابقين، ومثله نجد عند ابن الصباغ الذي حن إلى زيارة البيت العتيق، يقول:

يا دارُ هل يدنو المزارُ	***	فَيَعْقِبُ اللَّيْلَ الصَّبَاخُ
متى أرى أحدو القطارَ	***	فقد براني الانتزاح ¹

فالشاعر استعمل (هل) لتدل على ما يتمناه وهو زيارة المقام الكريم، ويتمنى حدوث ذلك عن قريب.

وصفوة ما سبق أن أغلب أشعار المديح النبوي في هذا العصر اتسمت بسهولة الألفاظ ووضوحها وبعدها عن الغموض، وهي طبيعة الأدب في الأندلس والمغرب عموماً، كما تميزت بالميل إلى البساطة بعيدة عن الغرابة، وقد كان للتكرار أثره القوي في تقوية المعنى وتوضيحه وخلق الألفة بين الأبيات الشعرية، أما الأساليب الإنشائية، خاصة كالاستفهام والنداء والأمر، فقد تركت بصمة فنية على الأبيات وأضافت مسحة جمالية ، لهذا قصرت الحديث عن هذه الأساليب الإنشائية دون الخبرة لما لها من دور في خلق جو من الألفة والجمال الفني.

¹ . أزهار الرياض، ج2، ص232.

المبحث الثاني: الصورة الشعرية

تعد الصورة أفضل أداة تعبيرية، ذلك لأنها تكشف عن الحالة الشعورية والوجدانية وتعمل على بلورتها وإخراجها إلى الوجود في أجمل حلة، وإن ذل ذلك على شيء فإنما يدل على أهمية التصوير في الشعر وقيمتها الفنية.

ويرى جابر عصفور أن الصورة هي: "طريقة خاصة من طرق التعبير، أو وجه من أوجه الدلالة تنحصر أهميتها فيما تحدته في معنى من المعاني، من خصوصية وتأثير، إن الصورة لن تغير من طبيعة المعنى في ذاته، إنما لا تغير إلا في طريقة عرضه وكيفية تقديمه..."¹

أي أن الصورة مجرد وسيلة، يعبر بها الأديب عن أفكاره إما عن طريق الوصف والإيحاء أو عن طريق الرمز والتمثيل.

وقد جاءت ألفاظ شاعر المديح النبوي في تلك الفترة في شكل صورة متعددة الجوانب، فمنها المباشرة، والبيانية، ومنها النفسية، والحركية وغيرها، وسنعرض لأهمها:

أ. الصورة المباشرة:

وهي: "الصورة الخالية من التشبيهات والاستعارات"²، ولقد وظفها شاعر المديح النبوي في هذا العصر ليحكي حقيقة ما يصفه، ويعبر عن مدى حبه وحنينه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ومثل ذلك ما نجده في قصيدة ابن جبير التي يصور فيها لحظات وصوله إلى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وما يختلجه من شوق وحنين، يقول:

لَمَّا حَلَلْنَا فِإِئَاءِ الرَّسُولِ	***	نَزَلْنَا بِأَكْرَمِ مَجْدٍ جَوَارًا
وَحِينَ دَنَوْنَا لِفَرْضِ السَّلَامِ	***	قَصْرْنَا الطَّرْفَ إِلَّا انْكِسَارًا
وَلَا تُظْهَرُ الْوَجْدَ إِلَّا اكْتِمَامًا	***	وَلَا نَلْفِظُ الْقَوْلَ إِلَّا سِرَارًا ³

ومثل هذه الصورة نجدها عند ابن الجنان الذي تحدث عن زائري البيت الحرام كيف أقبلوا على جدار الكعبة يقبلونه، يقول:

¹ . الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، جابر عصفور، دار المعارف، مصر، د.ط، 1980م، ص358.

² . المرجع نفسه، ص365.

³ . تاريخ الأدب العربي، الأدب في المغرب والأندلس، عمر فروخ، ج5، ص609.

ولما دنوا نُودُوا هنيئًا و أقبَلوا *** إلى الركنِ من كلِّ الفِجَاجِ أَدَارِجًا
وقضوا بتقبيل الجدارِ ولثمه *** حُقوقًا تقضي للنفوسِ حَوَاجًا¹

فشاعر المديح النبوي في هذا العصر أكثر من الصورة الواقعية المباشرة التي عبرت عن كوامينه النفسية بصدق، فتجلى حبه للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وحينه إلى زيارة الأماكن المقدسة.

ب. الصورة البيانية:

هي: "الصورة الشعرية غير المباشرة، أي التي يعتمد الشاعر فيها إلى التعبير بأدوات التصوير البياني، كالتشبيه، الاستعارة، والكناية وغيرها من ألوان علم البيان."² فقد استعمل التشبيه بمختلف أنواعه واحتلت الصورة التشبيهية جانبًا كبيرًا من شعر المديح النبوي في هذه الفترة، وكانت هي الوسيلة البلاغية الأولى التي انتشرت فيه بكثرة لا سيما التشبيه العادي، بأركانه الأربعة المعروفة (المشبه، المشبه به، الأداة، ووجه الشبه)، الذي جاء في مقدمة التشبيهات المعتمدة من طرف شعراء المديح النبوي في هذه الفترة، ومن أمثلته، قول ابن الصباغ:

سَأَنْظِمُ فِي فَحْرِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ *** لآلئِ لا يَبْلَى جَدِيدُ نِظَامِهَا
تَضَوُّعٌ طَيِّبًا عَرَفُهَا كَأَنَّهُ *** تَضَوُّعُ أَزْهَارٍ بَدَتْ مِنْ كِمَامِهَا³

فابن الصباغ قال أنه سينظم لآلئ لا شعرا، يفوح منها الطيب كأنه طيب أزهار تفتحت من أكمامها.

إن الصورة التشبيهية الواردة في هذا النظم جاءت في قوله: (تضوع طيبا عرفها، فكأنه تطوع أزهار بدت من كمامها)، فهو شبه أشعاره بالأزهار المتفتحة من أكمامها، والجامع بينهما رائحة الطيب التي تفوح من كليهما. وهذا مالك بن المرحل، يشبه الرسول صلى الله عليه وسلم بالفجر الذي يطلع فيقضي على ظلمة الليل ووحشته، يقول:

بشيراً ونذيراً لاح كالْفَجْرِ صَادِقاً *** على كاذبٍ حُلُوِّ اللِّسَانِ خَلُوبُ⁴

¹ . الإحاطة ، ج 2 ، ص 351.

² . معجم علوم البلاغة، البيان البديع المعاني، فول عكاوي، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، ط2 ، 1995م ، ص 591.

³ . أزهار الرياض ، ج 2 ، ص 250.

⁴ . الوابي بالأدب العربي في المغرب الأقصى ، ج 1، ص 342.

فهو شبه مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم، الصادق الأمين، إلى الأمة بالفجر الذي يطلع فيمحو ظلمة الليل ويأتي بصبح جديد، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أخرجنا من الظلمات إلى النور.

وارتقى الشعراء في سلم التشبيه فوظفوا التشبيه البليغ، لما له من قدرة بليغة على توصيل الصورة، وتوضيح المعنى، والنماذج كثيرة، نذكر منها قول ابن الصباغ:

كَرَّرَ عَلَى الْأَسْمَاعِ ذِكْرَ مُحَمَّدٍ *** فَلَذِكْرِهِ بَرْدٌ عَلَى الْأَكْبَادِ
هو بحرٌ جودٍ فاضٍ عذبٌ نواله *** وُصِفَتْ مَوَارِدُهُ لَدَى الْوُرَادِ¹

الصورة التشبيهية هي: (هو بحر جود)، فالضمير المنفصل يعود على الرسول صلى الله عليه وسلم بالبحر المليء بالنفائس وجواهر الأشياء ومثل هذا التشبيه، كثير في شعر المديح النبوي، فمنهم من شبه الرسول صلى الله عليه وسلم بالمسك الفتيق، وبالورد المعين، وبالنور، وهذا ما وجدناه في شعر ابن العطار في قوله:

صَلُّوا عَلَى الْمِسْكِ الْفَتِيقِ الْأَطِيبِ *** صَلُّوا عَلَى الْوَرْدِ الْمَعِينِ الْأَعْدَبِ
صَلُّوا عَلَى نُورِ ثَوَى فِي يَتْرِبِ *** صَلُّوا عَلَيْهِ بِمَشْرِقٍ وَبِمَغْرِبِ²

لقد كانت هذه بعض نماذج الصورة التشبيهية في شعر المديح النبوي في هذه الفترة عرضت أبرزها، ولم أتقصاها كلها فهي مكثفة و أكثر من أن تحصى لأن شعراء المديح هم أكثر الشعراء اتصالاً بالتشبيه لأنه يمكنهم عن طريق الموازنة أو المقارنة من إبراز الممدوح المفضل عندهم أكثر، وجعله يسمو عن الأشياء الشبيهة به، حتى يخلقوا الصورة الفنية الجميلة ذات المعنى الأعمق.

أما الاستعارة فتأتي في المرتبة الثانية، في شعر المديح النبوي في هذا العصر بعد التشبيه. والاستعارة في التراث النقدي والبلاغي هي: "أن يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي معروف تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلاً غير لازم"³.

فالاستعارة إذن هي استعمال اللفظ في غير موضعه ومعناه الحقيقي الذي وضع له، لأن الاستعارة تمثل مرحلة الدقة الفنية، التي تنتج صوراً عميقة، تفوق الصور التي يؤديها التشبيه.

¹ . أزهار الرياض ، ج2 ، ص248.

² . نفع الطيب ، ج7 ، ص480.

³ . أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد الفاضلي، المكتبة العصرية طبعة، بيروت، ط1، 1998م، ص31.

حتى إذا اقتعد البراق لينزلاً
نادته أسرار السموات العلاء
يا راجلاً ودعته لاعن قلى
ما كان عهدك بالغيوب دميماً *** صلوا عليه وسلموا تسليماً¹

الصورة في قوله (نادته أسرار السموات)، فالسمااء شيء محسوس، لكنه أكسبها صفة إنسانية، في قوله (نادته)، أي أن السماء نادت الرسول صلى الله عليه وسلم، والشاعر استعمل هذه الصورة ليعين مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم بين جميع المخلوقات.

وهذا التشخيص كان في الأشياء الكبيرة الضخمة خاصة (كالسمااء، الأرض، الشمس...) ليبينوا منزلة ومدوحهم، محمد صلى الله عليه وسلم خير خلق الله، وإن كان مدحهم يظل قاصراً، ومثل هذا التشخيص نلقيه عند ابن العطار، في قوله:

الشمس تحجل وهو منها أضوء *** النور منه مُقسَّم ومجزؤ²

فالشاعر ألبس الشمس صفة إنسانية، وهي الخجل، فالمعروف أنه لا شيء يضاهي الشمس في الضياء، لكنها تحجل أمام رسول الله لأنه أضوء منها وأجمل، فهذا التشخيص يتأتى للشاعر دون غيره، فيجعل من عناصر الطبيعة المحسوسة والمجردة ترقى لدرجة الإنسان في قالب فني جميل.

لم يكن اهتمام شعراء المديح النبوي في المغرب العربي منصبا على توظيف التشبيه والاستعارة فحسب، بل استندوا على نمط بلاغي آخر، قصد التعبير عن أفكارهم، ألقى بظلاله على الصورة الفنية لديهم ألا وهو **الكناية**، ورغم أن هذه الضلال لم تكن كثيفة، إذا ما قورنت بسابقتها (التشبيه، والاستعارة)، إلا أن موقعها في خطابهم الشعري قلب الأمور بصورة حاسمة وجعلها أداة من أدوات التشكيل الفني للصورة البلاغية، لأن الكناية هي: "أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه ورد في الوجود فيوميء به إليه ويجعله دليلاً عليه"³.

¹ . نفع الطيب، ج7، ص446.

² . تاريخ الأدب الجزائري، محمد الطمار، ص151.

³ . دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1992م، ص66.

وما دامت الكناية بهذا المعنى فإنها تتطلب من مبدعها التسلح بالقوة المائزة والشكل اللغوي الراقى، علاوة على درايته بأمور اللغة، حتى يستطيع صياغة صورة بلاغية مكتملة الجوانب. وشاعر المديح النبوي فقه هذه الصفات، فكانت صورته الكنائية راقية الصياغة عميقة المعنى. ومن المواضع التي تجد فيها هذه النوع البلاغي ماثلاً، قول أبي زيد الفازاني:

لَوْ خَفَّ ظَهْرِي لَكَانَ الْجِسْمُ مُرْتَحَلًا *** لَكِنْ قَلْبِي أَمَامَ الرَّكْبِ مُرْتَحَلًا¹

فالصورة الكنائية في هذا البيت وردت في عبارة، (لو خف ظهري)، وهي كناية عن كثرة الذنوب لأننا نقول الذنوب تثقل الظهر أو الكاهل، فالشاعر أراد الذهاب مع الحجيج لكن كثرة ذنوبه أثقلته وحبسته.

ولعل الشعراء نهجوا هذا السبيل غير المباشر ابتعاداً عن اللغة العادية بما تقوم عليه من تصريح، لما يحظى به التلميح من قوى التأثير في المتلقي وتوكيد المعاني في نفسه الطواقة المنجذبة لكل ما هو جديد. كذلك من الذين وظفوا الكناية في شعرهم، مالك بن المرحل، حيث يقول في خمسته (الألف بائية):

طَاء: طَوِيلُ السَّيْفِ مُتَّسِعُ الْخُطَا
رَحْبُ الدَّرَاعِ وَمَنْ يَمُدُّ لَهُمْ سَطَا
يُرْدِي الْعِدَا وَإِذَا ارْتَدَى مَتَّخِمْطَا
يُبْرِي عَذَابًا إِنْ أَلَامَ أَلِيمَا *** صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا.²

تعددت الصور الكنائية في هذه الأشطر، أولها في (طويل السيف) و(متسع الخطأ) هذه كناية عن طول القامة، وهذا ما ثبت في سيرته صلى الله عليه وسلم أنه كان طويل القامة. أما الكناية الثانية فهي في عبارة (رحب الدراع) وهذه كناية عن رحابة الصدر و اتساعه، فالرسول صلى الله عليه وسلم كان عريض الصدر.

لقد تنوعت الكنايات في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وتنافس الشعراء في الإتيان بأحسنها وأبلغها، وقد أكثروا منها حتى أصبح شعرهم في مصاف الشعر الرصين.

¹ أزهار الرياض، ج 4، ص 33.

² نفع الطيب، ج 7، ص 455.

ج. الصورة النفسية:

من الطبيعي أن تظهر الصورة النفسية عند شاعر المديح النبوي في هذا العصر بكثرة لأنه يعبر عن تجربة وجدانية عاشها وتفاعل معها، والأمثلة على ذلك كثيرة لا حصر لها، منها قول ابن الصباغ يصف حالته النفسية جراء بعده عن البقاع المقدسة:

أَيْنَ طَيْبِ الْمِسْكِ وَشَدَا الزَّهْرِ *** فِي دُجَى اللَّيْلِ مِنْ شَدَا الذِّكْرِ
 آهٍ مِنْ أَدْمَعِي وَمِنْ حُزْنِي *** فَجَعَةُ الْبَيْنِ كَمْ تَرَى تُضْنِي¹

الشاعر هنا يصور ما فعل به الشوق والحنين إلى زيارة البقاع المقدسة ، وقبر الرسول صلى الله عليه وسلم، فيتحصر لبعدها عنه ويغمره الحزن وتنهل دموعه، وهذه صورة نفسية صادقة عايشها صاحبها، ولعل هذه الصورة نلغيا عند أكثر الشعراء المتشوقين إلى زيارة البقاع المقدسة، والظفر بالوقوف أمام مقام الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا ما كان يرجوه أبو زيد الفارازي، وأكثر فيه النظم، يقول في بعض أبياته:

فِي كُلِّ عَامٍ أَرْجُو زُورَةَ مَعَكُمْ *** فَتَنْهَضُونَ وَشَأْنِي دُونَكُمْ ثَقُلُ
 لَوْ خَفَّ ظَهْرِي لَكَانَ الْجِسْمُ مُرْتَحِلًا *** لَكِنْ قَلْبِي أَمَامَ الرَّكْبِ مُرْتَحِلُ
 يَجِدُو بِهِ وَجْدَهُ وَالشُّوقُ سَائِقُهُ *** وَكَيْفَ يَدْنُو كَلَالٌ مِنْهُ أَوْ مَلَلُ
 قَلْبِي بِحَبِّ رَسُولِ اللَّهِ مُشْتَغِلُ *** يَا وَيْحَ قَلْبٍ لَهُ عَنْ حُبِّهِ شَغَلُ²

فالشاعر مشتاق إلى زيارة قبر الرسول الكريم عليه الصلاة والتسليم، فكلما ارتحلت فرقة للحج ارتحل قلبه معها يسوقه الشوق لا يمل ولا يكل، هذا القلب الذي دائما في اشتغال بحب الرسول صلى الله عليه وسلم. إن شعراء المديح النبوي دائمو الحنين والشوق إلى زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، ومعاهده ومآثره ، ولقد وجدوا متنفسهم في هذه الصورة النفسية، التي عبروا بها عن كل ما يختلج أنفسهم من وجد وشوق وحنين.

¹ . أزهار الرياض ، ج 2 ، ص 242.

² . المصدر نفسه، ج 4 ، ص 33.

د. الصورة الحركية:

هذه الصورة يعرضها الشاعر من خلال وصفه للحركات أو السكنات أو الظلال، وتكون وسيلة لنقل تجربته الشعرية إلى ذهن المتلقي، وشاعر المديح النبوي في هذه الفترة يكثر من إيراد هذه الصورة، ليجسد لك هذه العاطفة الصادقة، والحب الشجي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقد تنوعت مظاهر هذه الصورة الحركية عند الشعراء الذين تشوقوا إلى البقاع المقدسة وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم خاصة. فهذا ابن العطار يصور لك كيف يسري النسيم في ربوع يترب، فيقول:

أبدًا تشوقك أو تروؤك يتربُ *** فإلى متى يُقَصِّيكَ عَنْهَا المغربُ
جيشُ الصَّبَابَةِ شَنَّ غَارَاتِ الأَسَى *** مِنْ بَعْدِهَا فَالصَّبْرُ مِنْهَا يُنْهَبُ
حَتَّى النَّسِيمُ إِذَا سَرَى بَيْنَ رُبْعِهَا *** يُبْنِي مِنَ الرُّوضِ العُصُونَ وَيُطْرِبُ¹

وفي هذه الأبيات صورتان حركيتان، الأولى تصور حركة هذه الصبابة التي شنت عليه غارات الأسي والحزن جراء البعد والفراق، أما الصورة الثانية فهي حركة النسيم الطيب الذي يجوب أرجاء مدينة يترب، ويطوي غصون الروض ويطرب النفوس، ومثل هذه الصورة نجدها عند أبي زيد الفازازي، يقول متشوقا لزيارة البقاع المقدسة:

لو خفَّ ظَهْرِي لكانَ الجِسْمُ مرتحلاً *** لكنَ قلبي أَمَامَ الرِّكْبِ مرتحلُ
يحدُّو به وجده والشَّوقُ سَائِقُهُ *** وَكَيْفَ يَدْنُو كَالأَلِّ مِنْهُ أَوْ مَلَأُ²

فالشاعر هنا صور حركة هذا القلب الذي يتشوق لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا القلب كلما ارتحل ركب إلى البقاع يرتحل معه بوجده يسوقه الشوق، لا يكل ولا يمل.

لقد عرضت لأكثر الصور ورودا في شعر المديح النبوي في هذا العصر، من صور مباشرة صريحة خالية من التلميحات والإيحاءات واقعية إن صح التعبير، قريبة المعنى إلى ذهن المتلقي، إلى صور بيانية تنوعت فيها التشبيهات والاستعارات والكنايات، التي زادت الشعر عمقا وجمالا وقوة، ختاما بالصور النفسية والحركية التي عبر فيها شعراء المديح النبوي على نفسياتهم المتعبة من لوعة الشوق والحنين.

¹ . نفع الطيب، ج 7، ص 490

² . أزهار الرياض، ج 4، ص 33.

المبحث الثالث: البنية الإيقاعية:

يعد الإيقاع عنصراً جوهرياً لا يستهان به في بناء الخطاب الشعري، أو لنقل أنه: "من أصعب الآليات المستعملة في النص الشعري لأنه يقوم على دعامة توازن بين محورين الصوتي والدلالي"¹، ويساعد على إيجاد نوع من التنظيم والانسجام.

ولعل الجزء الكبير من قيمة الشعر الجمالية يرد إلى صورته الموسيقية بل ربما كان أكبر قدر من هذه القيمة مرجعه إلى هذه الصورة الموسيقية².

من هذا المنطلق ستكون الدراسة هنا بحثاً عن البنية الإيقاعية لقصيدة المديح النبوي في المغرب العربي إبان عصر الموحدين.

أ. الوزن:

يقوم الإيقاع الشعري على عنصرين أساسيين هما: الوزن والقافية، وللمقوم الأول الصدارة لأنه يتميز بالشمولية والاتساع، إذ يعد حجر الأساس بالنسبة للقصيدة العربية، حيث لا يمكن أن يقوم بناؤها إلا عليه³، ويرى ابن رشيق أن حد الشعر يقوم بعد البنية من أربعة أشياء؛ وهي: "اللفظ، والوزن، والمعنى، والقافية"⁴

إذن فالوزن ركن أساسي في بناء القصيدة، وهو دائماً مرتبط بالإيقاع على الرغم من أن هذا الأخير أشمل وأعم من الوزن في الشعر، فالإيقاع هو: "وحدة النغمة التي تتكرر علينا عموماً في الكلام أو في البيت، أي توالي الحركات والسكنات على نحو منتظم في فقرتين أو أكثر من فقر الكلام أو في أبيات القصيدة، أما الوزن فهو مجموعة التفعيلات التي يتألف منها البيت"⁵.

ولدراسة التشكيل الموسيقي (الوزن) لقصيدة المديح النبوي في هذا العصر سنبدأ بالبحر الشعري التي استخدمها الشعراء ونسجوا على منوالها قصائدهم، فوجدنا أن شعراء المديح النبوي في هذا العصر قد نسجوا أشعارهم على مختلف البحور الخليلية القديمة وإن كان حضورها يتفاوت من شاعر إلى

¹ حركة الإيقاع في الشعر المعاصر، الحسين الغربي، إفريقيا الشرق، المغرب، د.ط، 2001م، ص6.

² الشعر العربي المعاصر، عز الدين إسماعيل، دار الكتب العربي، للطباعة والنشر، القاهرة، د.ط، 1967، ص124.

³ ينظر، قصيدة المديح النبوي بالمغرب الأوسط في القرنين الثامن والتاسع الهجريين، صونيا بوعبد الله، رسالة ماجستير، ص 126.

⁴ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، دار الجليل للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، ج1، ص119.

⁵ النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، نضمة مصر للطباعة والنشر، مصر، د.ط، 2004م، ص453.

آخر، وأكثر البحور حضوراً بحر البسيط، لما يتميز به من الرقة الانسيابية والجمال، ثم بحر الطويل، ثم الكامل، ثم السريع، ثم الرجز.

فالبحر من أهم الدعائم الرئيسية التي يركز عليها الشعر، ولقد سمي البحر الشعري بحراً لأنه: "يوزن به ما لا يتناهى من الشعر، فأشبه البحر الذي لا يتناهى بما يغترف منه".¹ وأكثر الأوزان شيوعاً لدى شعراء المديح النبوي هو (بحر البسيط)، فقد نظموا فيه أكثر مقطوعاتهم، ومن الشعراء المشهورين في هذا البحر، ابن الجنان، الذي أغلب مدائحه في طلب شفاعته رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول في إحدى مقطوعاته:

بجيبِ القلوبِ مُعْتَمِدِ الخَلدِ	***	قِ أَبِي القَاسِمِ النَبِيِّ الشَّفِيعِ
قد تشققتُ من دُنُوبِي إلى ذِي الـ	***	عِزَّةِ الوَاحِدِ العَلِيِّ السَّمِيعِ
فاشفعْ إشفعْ يا خَاتِمَ الرُّسُلِ يَوْمَ الـ	***	حَشْرِ والمَشْهَدِ العَظِيمِ ²

وكانت أغلب قصائده على هذا البحر، ومن تناولوا بحر البسيط، من شعراء المديح النبوي في هذا العصر أيضاً، ابن سهل، وقد نظم فيه خمسته المعروفة، يقول فيها:

يا شَوْقِي الحَامِي إلى ذَاكَ الحِمَى	
فَمَتَى أَقْضِيهِ غَرَامًا مَغْرَمًا	
وَمَتَى أُعَانِقُهُ صَعِيداً مُكْرَمًا	
بِضْمِيرِ كُلِّ مُوَحَّدٍ مَلْثُومًا	***
صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ³	

يقول إميل يعقوب في البحر البسيط ومميزاته: "هذا البحر من البحور الطويلة التي يعمد إليها الشعراء في الموضوعات الجدية، ويمتاز بجزالة موسيقاه، ودقة إيقاعه، وهو يقترب من الطويل في الشروع والكثرة، أو بعده بقليل".⁴

ولا شك أن موضوع المديح النبوي من المواضيع الجدية التي تتطلب مثل هذه الجزالة الموسيقية والدقة الإيقاعية، وقد اهتدى إليه شعراء المديح النبوي في هذه المرحلة، ووجدوا فيه من الانبساط ما يلائم ما جادت به قرائحهم من قصائد ومقطوعات.

¹ الطريق المعبود إلى علمي الخليل بن أحمد، العروض والقافية، عبد الحميد السيد محمد، مكتبة الكليات الأزهرية، الأزهر، القاهرة، د، ط، ص 99.

² نفع الطيب، ج 7، ص 507.

³ المصدر نفسه، ج 7، ص 448.

⁴ المعجم المفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر، إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1991م، ص 74.

يلي بحر البسيط، بحر الطويل، وهو قريب من البسيط، وقد نظم الشعراء فيه العديد من قصائدهم، فهذا أبو زيد الفاززي له مقطوعات على هذا الوزن، يقول في إحداها:

أُحِبُّ النَّبِيَّ الْهَاشِمِيَّ مُحَمَّدًا *** أَجَلُّ الْوَرَى ذَاتًا وَأَصْلًا وَمَحْنِدًا
وَأَطْيَبَهُمْ نَفْسًا وَأَطْوَلَهُمْ يَدًا *** أَطَابَ لَهُ الرَّحْمَانُ مَنَشَأً وَمَوْلِدًا¹

في هذا البحر أيضا نظم ابن خبازة قصيدة طويلة، في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، يقول في بعضها:

حَقِيقٌ عَلَيْنَا أَنْ نُجِيبَ الْمَعَالِيَا *** لُنْفِي فِي مَدْحِ الْحَبِيبِ الْمَعَانِيَا
لُنُطَلِّعَ مِنْ أَمْدَاحِ أَحْمَدَا أَبْجُمَا *** تَلُوخُ فَتَحُلُو فِي سَنَاهُ الدِّيَاجِيَا²

ولقد أسعف بحر الطويل شعراء المديح النبوي بسعته ورحابته واتساعه للكثير من المعاني التي استوعبتها قصائدهم النبوية.

وعلى هذا البحر يعلق الدكتور إميل يعقوب بقوله: "يمتاز هذا البحر بالرصانة والجلال في إيقاعه الموسيقي"³ وهذه الميزات هي التي تتوفر عليها هذا البحر التي تجذب الشعراء في مختلف الأغراض. كما علق الدكتور عبد الله الطيب على هذين البحرين بكلمة عامة، فقال فيها: "الطويل والبسيط أطولا بحور الشعر العربي، وأعظمها أبهة وجمالة، وإليهما يعمد أصحاب الرصانة، وفيهما يفتضح أهل الركافة والهجنة..."⁴، لهذا أكثر الشعر العربي على هذين الوزنين.

ومن البحور التي وجدت استحسانا وإقبالا من شعراء المديح النبوي، بحر الكامل، فهو يلي البسيط والطويل لتمييزه بكثرة أضربه، وقد نظم في هذا الوزن معظم شعراء المديح النبوي في هذه الفترة، لكن أبا زيد الفاززي هو الذي أكثر النظم فيه، يقول في بعض أبياته يبين فضل الرسول صلى الله عليه وسلم على الخلق أجمعين:

¹ ديوان الوسائل المتقبلة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم لأبي زيد الفاززي، المطبعة الميمنية، د.ط، د.ت، ص 6.

² الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، ج1، ص325.

³ المعجم المفصل، إميل يعقوب، ص103.

⁴ المرشد إل فهم أشعار العرب وصناعتها، عبد الله الطيب، دار الآثار الإسلامية، الكويت، ط3، 1989م، ج1، ص443.

سُدْفَ الْبَاطِلِ عَنَّا أَجْمَعِينَ	***	أَيُّ نُورٍ كَشَفَ اللَّهُ بِهِ
عِنْدَمَا أَكْمَلَ سِنَّ الْأَرْبَعِينَ	***	خَتَمَ اللَّهُ بِهِ أَنْوَارَهُ
وهو بالله تعالى مُسْتَعِينٌ ¹	***	فهو للنَّاسِ جَمِيعاً مُرْشِدٌ

ولعل ابن جبير يحل في المرتبة الثانية بعد الفازاري، في النظم على هذا الوزن، وله قصيدة طويلة، نظمها يتشوق فيها إلى زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وهو في ركب الحجيج، يقول في بعضها:

فلا قَلْبٌ في الرِّكْبِ إِلَّا وَطَارًا	***	جَرَى ذِكْرُ طَيْبَةٍ مَا بَيْنَنَا
وَشَوْقًا يُهَيِّجُ الضُّلُوعَ اسْتِعَارًا ²	***	حَيْنًا إِلَى أَحْمَدَ الْمُصْطَفَى

وإلى جانب هذه البحور التي ذكرناها هناك بحور أخرى ركبها الشعراء في التعبير عن حبهم وحنينهم وشوقهم لزيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتعداد مناقبه ومعجزاته والتبرك بآثاره، ولكنها أقل استعمالاً، وإن كانت هي أيضاً ساهمت في تكوين موسيقى شعر المديح النبوي في هذا العصر، منها بحر الرجز والسريع بنسب متقاربة يليها الخفيف والرمل.

وما يتضح لنا أن شعراء المديح النبوي، في هذه الفترة مالوا - كعادة الشعراء العرب - إلى استعمال البحور الطويلة، لا ستيعابها جميع المعاني والأفكار والعواطف، لذلك جاءت أشعارهم متناغمة يعلوها إيقاع رنان، تطرب له الآذان وتستريح له الأنفوس.

ب. القافية:

كما عرفها عبد العزيز عتيق هي: "المقاطع الصوتية التي تكون في أواخر أبيات القصيدة، أي المقاطع التي يلزم تكرار نوعها في كل بيت"³.
أما الأحفش فتوسع قليلاً، فقال هي: "آخر كلمة في البيت أجمع"⁴.

¹ . نفع الطيب ، ج 7 ، ص 508

² . الإحاطة ، ج 2 ، ص 235.

³ . علم العروض والقافية، عبد العزيز عتيق، دار الآفاق العربية، القاهرة ، د.ط ، 2004م ، ص 110.

⁴ . علم العروض والقوافي ، حميد آدم تويني ، دار صفاء، عمان ، ط 1 ، 2004م ، ص 490.

وعموما القافية هي قيمة موسيقية في مقطع البيت، وهي استكمال ضروري لظاهر الوزن في الشعر، وهي تنقسم إلى قسمين: **القافية المطلقة**، و**القافية المقيدة**، وهذا الأمر متعلق بحركة حرف الروي، فتكون مقيدة إذا كان حرف الروي ساكنا، ومطلقة إذا كان متحركا.¹

والنوع الأول شائع كثير الحضور، أما الثاني نادرا ما يطلبه الشعراء، وهذا ما ألفيته عند شعراء المديح النبوي في هذا العصر، فقد أكثروا من القافية المطلقة، وأمثلة ذلك كثيرة، منها قول مالك بن المرحل في همزته المشهورة:

إلى المصطفى أهديتُ غُرَّ ثنائي *** فيا طيب أهدائي وحسن هدائي
أكليلٍ من مدح النبي محمد *** بها حازت الآداب كلَّ بهائي²

والملاحظ أن القافية جاءت مطلقة متواترة، والتواتر هو مجيء حرف متحرك بين حرفين ساكنين، وهو كثير في الشعر، وقد اختار الشاعر حرف الهمزة رويًا لقصيدته، التي يمدح بها الرسول صلى الله عليه وسلم، ومثل هذه القافية نجدها عند ابن الجنان، يقول في نبوياته:

ذاك الذي حاز المكارم فأعدت *** قد نظمت في سلكه تنظيمًا
وبدت شواهد صدقه قد قسمت *** بدر الدجى لقسيمه تقسيمًا³

فالقافية جاءت متواترة، مؤثرة بإيقاعها المتناغم على الأذان، متممة لموسيقى البيت الشعري، كما ساهمت في أداء المعنى الذي سعى إليه الشاعر.

إضافة إلى هذه القافية المتواترة، هناك نوع آخر، يطلق عليه (قافية المتدارك)، وهي "مجيء حرفين متحركين بين حرفين ساكنين" ⁴، وهي الأخرى كانت حاضرة بقوة في شعر المديح النبوي في هذا العصر، تكاد تعادل القافية المتواترة، فقد ألفيناها في عدة قصائد نبوية، منها قصيدة ابن خبازة، والتي يقول في مطلعها:

حقيق علينا أن نجيب المعالي *** لنفني في مدح الحبيب المعالي
ونجمع أشتات الأعاريض حسبة *** ونحشر في ذات الإله القوافي⁵

¹ .ينظر علم العروض والقافية ، عبد العزيز عتيق ، ص115.

² .الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى ، ج1، ص339.

³ . نفع الطيب، ج7، ص440.

⁴ . علم العروض والقوافي، آدم تويني ، ص238.

⁵ . تاريخ الأدب في المغرب العربي ، حنا الفاحوري ، ص182.

فالشاعر يحشد جنوده من القوافي والأعاريض، ويجعلها فداء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد اختار القافية المطلقة، ذات الروي "الباء" وهي من النوع المتدارك، والتي ساهمت إلى حد بعيد في أداء المعنى.

من هذا كله يتضح أن القافية المطلقة كانت الأكثر حضوراً عند شعراء المديح النبوي في هذا العصر، وذلك لما لها من دور في تحديد المعنى ونقله بصورة فنية للمتلقي، وخلق ألفة تناغم بين الأبيات الشعرية، ولكن هذا لا يعني أن الشعراء في هذه الفترة قد عزفوا عن القافية المقيدة فاستعمالهم لها وارد، لكن بنسب قليلة جداً، ومن أمثلة ذلك قول ابن الجنان:

يَا مَنْ تَقَدَّسَ عَنْ أَنْ	***	يُحِيطُ وَصَفٌ بِذَاتِهِ
مُحَمَّدٌ خَيْرٌ هَادٍ	***	بِحَلْمِهِ وَأَنَاثِهِ
أَكْرَمٌ بِهِ مِنْ نَبِي	***	هَمَّتْ سِمْمَا مُكْرَمَاتِهِ ¹

جاءت القافية مقيدة وهي: "القافية الساكنة التي لا ينتهي حرفها الأخير بحركة، أو صوت قصير، فلا يشبع الحرف الأخير، بسبب تقيده بالسكون والقصر عن الحركة".² واستعمل ابن الجنان حرف الروي "الهاء" وهو صوت جوفي من الأعماق ليعبر عن صدق مشاعره وحبه الأبدي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والقافية المقيدة هنا هي من نوع المتواتر، ولهذا جاء المعنى جلياً للعيان. بالإضافة إلى القافية المقيدة المتواترة نجد نوعاً آخر من القوافي المقيدة، ويطلق عليه (المترادف)، سمي مترادفاً لأن أحد الساكنين يردف الآخر، أي يتبعه لأنه "اجتماع ساكنين"³، ومن النماذج الشعرية، قول الفازازي:

أَنَا بِدَلِيلٍ بَيِّنٍ	***	عَجَزْتُ عَنْهُ دَوَاعِي الْمُدَّعِينِ
فَأَعِدْ أَنْبَاءَهُ فَهُوَ مُنَى	***	أَنْفُسِ الْقَائِلِ وَالْمُسْتَعِينِ
وَالَّذِي يَهْدِي إِلَى شِرْعَتِهِ	***	فَهُوَ مَجَّاحٌ مِنَ الْعَذْبِ الْمَعِينِ ⁴

¹ . نفع الطيب، ج7، ص 501.

² . علم العروض والقوافي، عبد العزيز عتيق، ص 126.

³ . المرجع نفسه، ص 136.

⁴ . نفع الطيب، ج7، ص 508.

وَأَرْفَعُ لَهُ الدَّرَجَاتَ فِي رُتَبِ الْعُلَا *** فهو الذي لِلْمُرْشِدِينَ إِمَامٌ¹

كذلك من الشعراء الذين استخدموا الميم رويًا لقصائدهم، محمد بن الحسن البجلي²، في قصيدة له نظمها يتشوق فيها لزيارة مقام الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، يقول في بعضها:

فِيَا طَوَّلَ شَوْقِي لِلنَّبِيِّ وَصُحْبَتِهِ *** وَيَا شَدَّ مَا يَلْقَى الْفُؤَادُ وَيَكْتُمُ
إِلَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ أَرْفَعُ حَاجَتِي *** فَأَنْتَ شَفِيعُ الْخَلْقِ وَالْخَلْقُ هَيْمٌ³

أما الروي الثاني الذي يكثر استخدامه في شعر المديح النبوي هو (اللام)، وهذا من الحروف الأكثر شيوعًا ربما لخصائصه الصوتية، فهو يتميز بالشدة والقوة، وبالتالي شدة الوقع على السمع، يقول عنه كمال بشير: "أما اللام فيتميز بالصوت الشديد، وهو حرف لثوي جانبي أسناني مشهور"⁴. وهذا الروي وجدناه عند الكثير من الشعراء، منهم حازم القرطاجني، في قصيدة له يقول في بعض أبياتها:

لَعَيْنَيْكَ قُلْ إِنْ زُرْتِ أَفْضَلَ مُرْسَلٍ *** قِفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ
وُزْرُ رَوْضَةٍ قَدْ طَالَمَا طَابَ نَشْرُهَا *** لَمَّا نَجَّتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَسَمَّالٍ⁵

هذا فيما يخص الحروف المجهورة، أما الحروف المهموسة فقليلة إذا ما قورنت بالأولى، ولعل أكثر الحروف حظًا في الاستعمال من قبل شعراء المديح النبوي، حرف (هاء) وكان ابن الجنان الأكثر استعمالًا لهذا الحرف كروي، فقد وظفه في عدة مقطوعات، يقول في إحداها:

يَا رَبِّ بَلِّغْ سَلَامِي *** لِأَحْمَدَ ذِي الشَّفَاعَةِ
لِحَاتِمِ الرُّسُلِ أَعْنِي *** لِإِمَامٍ تَلَكَّ الْجَمَاعَةَ
لَأَبْهَرِ الْخَلْقِ مَجْدًا *** بِحِكْمِي الصَّبَاحِ نِصَاعَةَ⁶

¹ . نفع الطيب ، ج 7، ص 504.

² . هو محمد بن الحسن بن ميمون القلعي البجلي، من شعراء الجزائر، عاش في النصف الثاني من القرن السابع هجري، أكثر النظم في المدائح النبوية، ينظر، تاريخ الأدب العربي شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات ، ص 209.

³ . تاريخ الأدب العربي شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، ص 210.

⁴ . علم اللغة العام للأصوات، كمال بشير ، دار المعارف ، مصر، د. ط. ، 1987م ، ص 348.

⁵ . ديوان حازم القرطاجني ، ص 89.

⁶ . نفع الطيب ، ج 7، ص 502.

وقد جاء هذا الروي المهموس، الجوفي المخرج، متناسقا مع الأبيات، محدثا نغمة موسيقية جميلة، وجاء مبلغا للمعنى حسن تبليغ، فتلمس عاطفة الشاعر الصادقة اتجاه المصطفى صلى الله عليه وسلم. من خلال ما سبق نجمل القول أن الوزن والقافية والروي من العناصر الأساسية في تكوين البنية الإيقاعية للشعر، لأنها تمثل الموسيقى الخارجية، هذا بالإضافة إلى عنصر آخر لا يقل أهمية عن العناصر الأولى، وهو التوازنات الصوتية أو الموسيقى الداخلية؛ أي ما تحدثه الألفاظ والعبارات داخل النص الشعري من إيقاع موسيقي، وهذا ما سيلبي الحديث عنه.

د. التوازنات الصوتية:

1. التجنيس: الجناس هو من فنون البديع اللفظية، وقد اهتم علماء البلاغة بهذه الظاهرة الموسيقية، كما أن الشواهد في الشعر العربي قديمه وحديثه غزيرة مما يدل على اهتمام الشعراء بهذا اللون من ألوان البديع، ويرى إبراهيم أنيس أن: "كثرة الشواهد الشعرية دليل على حب العرب لهذا النوع من الموسيقى الكلامية."¹

وشعراء المديح النبوي في عصر الموحدين قد أولوا الجناس أهمية كبرى، فلا تكاد تجد قصيدة أو مقطوعة نبوية إلا وفيها التجنيس وأنواعه، فتجد الجناس التام، والمصحف واللاحق... وغيرها من الأنواع الأخرى، وسأعرض هنا لبعضها.

✓ الجناس التام: هو: "أن تكون اللفظتان متفقتين أو مشتركتين في أربعة أشياء هي: نوع الحروف، وعددها، وشكلها، وترتيبها"²، ومثال ذلك قول ابن الصباغ:

أَلَا هَلْ إِلَى وَادِ الْعَقِيقِ طَرِيقُ

فَقَدْ هَاجَ شَوْقًا لِلدِّيَارِ مُشَوِّقُ

دُمُوعِي عَلَى وَادِي الْعَقِيقِ عَقِيقُ *** ولي زَفْرَةٌ تَعْدُو بِهَا وَتَسُوقُ³

فالجناس التام واضح في التشابه في العناصر الأربعة بين الكلمتين (عقيق) الأولى و(عقيق) الثانية، أما الأولى فيقصد بها مكان مقدس بالحجاز، وهو واد، أما الثانية فيقصد بها الدموع، فدموعه

¹ دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلوا المصرية، ط5، 1984م، ص202.

² محاضرات في البلاغة العربية "البيان والبديع"، جمال شوالب، مكتبة إقرأ قسنطينة، ط1، د.ت، ص61.

³ أزهار الرياض، ج2، ص173.

تجري دون انقطاع، مثل انتظام العقد وقد زاد هذا النوع من البديع في توضيح المعنى، كما أكسى البيت الشعري نغما موسيقيا.

✓ الجناس المضارع: هو: " أن يكون اختلاف ركنيه في حرفين لم يتباعد مخرجا" ¹. وهذا

النوع من الجناس كثير في شعر المديح النبوي، من ذلك قول أبي زيد الفازازي
بنفسِي غَادٍ لِلْحَبِيبِ وَرَائِحٍ ***
أَلَاخَ لَهُ نُورٌ يَبْتَرِبُ لَائِحٍ ²

والجناس هنا بين كلمة (رائح) وكلمة (لائح) ، وقد أدى هذا الاختلاف في حرف واحد إلى اختلاف في الدلالة ، وأكسب البيت نغما موسيقيا وكان له دور في التوازن الصوتي .

2. التصريع: التصريع عنصر جوهري يساعد في نسج النظام العام للقصيدة، وقد عرفه ابن رشيق بقوله: "فأما التصريع فهو ما كانت عروض البيت فيه تابعة لضربه تنقص بنقصه وتزيد بزيادته" ³، فالتصريع ظاهرة بلاغية صوتية، متصل بالاستعمال يأتي في البيت الأول من القصيدة عادة، فيضفي نغما موسيقيا يجذب السامع والقارئ معا، وشعراء المديح النبوي في هذا العصر وظفوا عنصر التصريع في قصائدهم بغية تجميل أشعارهم. ومن النماذج الشعرية، قول مالك بن المرحل:

إِلَى الْمِصْطَفَى أَهْدَيْتُ عُرِّي تَنَائِي ***
فَيَا طَيْبَ إِهْدَائِي وَحُسْنَ هَدَائِي ⁴

التصريع تمثل في عروض البيت (ثنائي) التابعة لضربه (هدائي)، وقد حقق تناغما موسيقيا بين صدر البيت وعجزه. ومن هذا التصريع أيضا، قول الفازازي:

يَا سَيِّدَ الرُّسُلِ الْمَكِينُ مَكَانُهُ ***
وَمُقَدَّمًا وَهُوَ الْأَخِيرُ زَمَانُهُ ⁵

فالتصريع هنا بين لفظتي (مكانه- زمانه)، ووقعه الموسيقي في البيت الشعري جلي، يجذب النفس.

فقد كان التصريع حاضرا في جميع قصائد المديح النبوي في هذا العصر، لأن الشعراء أدركوا قيمته في القصيدة، وكيف يكسبها نغما موسيقيا يخلق الألفة بين الأبيات الشعرية كلها.

¹ محاضرات في البلاغة العربية "البيان والبديع" ، ص 65.

² ديوان الوسائل المتقبلة ، ص 54.

³ . العمدة في محاسن الشعر ، ج 2 ، ص 173.

⁴ . الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى ، ص 339.

⁵ . أزهار الرياض ، ج 4 ، ص 31.

3. التصدير: هو: "نوع من التكرار يكون نتيجة تكرار كلمة مرتين، على أن تلزم في الثانية موقعا محددًا هو الضرب"¹؛ أي أن الكلمة الثانية تكون هي القافية، وهذا النوع من ألوان البديع شائع بشكل واضح في قصائد المديح النبوي في هذه الفترة، ومن أمثله قول ابن الجنان:

تَرْكُ النَّزَاهَةِ عِنْدَنَا *** أَدَى إِلَى وَصْفِ النَّزَاهَةِ²

ومنه أيضا قول ابن العطار:

حَوَتْ سَيِّدَ الرُّسُلِ الَّذِي جَلَّ قَدْرُهُ *** لَهُ فِي مَقَامِ الثَّرْبِ تَقْضِي الْمَطَالِبُ
بِهِ غَالِبٌ حَازَ الْمَفَاخِرَ سَالِقًا *** وَلَا شَرَفَ إِلَّا الَّذِي حَازَ غَالِبًا³

فالتصدير هنا ولد تناسبًا إيقاعيا له وقعته الجمالي المؤثر في النفس.

4. الطباق: يعد الطباق من المحسنات البديعية التي تعتمد على الجمع بين الشيء وضده، وقد اعتمد الشعراء على اتخاذه في كثير من الأبيات، وما من شك أن الجمع بين المتضادات له إيقاع خاص يكسو الكلام جمالا ورونقا، ولكن وظيفة الطباق كما يقول عبد القاهر الجرجاني: "لا تقف عند هذا الزخرف وتلك الزينة الشكلية، بل تتعداه إلى غايات أسمى فلا بد أن يكون هناك معنى لطيف ومغزى دقيق وراء جمع الضدين في إطار واحد، وإلا كان هذا الجمع عبثا"⁴.

والطباق في شعر المديح النبوي لم يأتي به الشعراء عبثا بل كان مما يفيد المعنى ويقويه، ذلك لأن الشاعر استطاع التوفيق بين الشيء وضده وجعل بينهما مناسبة، بحيث يستدعي كل منهما الآخر، ومما ورد لدى شعراء المديح النبوي من هذا القبيل كثير، من ذلك قول مالك بن المرحل يذكر بفضل النبي صلى الله عليه وسلم:

أَيَا عُتَقَاءِ الْمُصْطَفَى إِنَّ حَقَّهُ *** عَظِيمٌ فَكُونُوا أَكْرَمَ الْعُتَقَاءِ
أَمَا كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ فِي شَقَاوَةٍ *** فَلَوْلَاهُ هَلْ كُنْتُمْ مِنَ السُّعْدَاءِ؟⁵

¹ . ينظر جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، السيد أحمد الهاشمي، تحقيق حسن حمد ، دار الجيل بيروت، د. ط ، د. ت ، ص 254.

² . نفع الطيب ، ج 7، ص 477.

³ . المصدر نفسه، ج 7، ص 494.

⁴ . أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني، ص 11.

⁵ . الوابي بالأدب العربي في المغرب ، ج 1، ص 340.

في النهاية أقول أنني بدلت جهدي وأدليت بفكري في هذا الموضوع لعلي أكون قد وفقت في عرض صورة بسيطة عنه، والآن وقد بلغت كلمة الختام ارتأيت أن أجعل الصورة العامة لهذه المذكرة في بعض النقاط، هي:

- إن شعر المديح النبوي باب قديم في الشعر العربي، قيلت أولى القصائد منذ ميلاد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، لكنها كانت قليلة ولا تكاد تبين، ولم تنفرد قصائد بعينها لمدح المصطفى صلى الله عليه وسلم، حتى عصر صدر الإسلام، على يد حسان بن ثابت.
- إن أولى البدايات لهذا الغرض الشعري، كفن شعري، كان مع المشاركة في بداية العصر العباسي الثاني، أمثال البوصري والصرصري، ثم حمل المشعل شعراء المغرب العربي، فكانوا أكثر إنتاجا في هذا الغرض من سابقهم.
- إن أزهى فترات شعر المديح النبوي، كانت في عصر الموحدين، فلم يبقى شاعر في هذا العصر إلا نظم أبياتا أو مقطوعات في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم.
- إن الاضطرابات السياسية والاجتماعية، وعدم الاستقرار بسبب الحروب الصليبية الذي أدى إلى تساقط المدن الإسلامية، كانت أولى الأسباب في ذيوع هذا الغرض الشعري في هذا العصر.
- لقد لجأ الشعراء في عصر الموحدين إلى هذا الغرض الشعري، بغية استنهاض الهمم ودفع المسلمين للتأسي بالرسول صلى الله عليه وسلم، والدفاع عن البلاد الإسلامية.
- أبرز شعراء المديح النبوي في هذه الفترة هم: ابن الجنان، وابن العطار، ومالك بن المرحل، وابن الصباغ، فهؤلاء أكثروا النظم في المديح النبوي وأجادوا.
- لقد تنوعت الموضوعات التي حوتها القصائد النبوية، من تعداد لصفات الرسول ومناقبه ومعجزاته، إلى التشوق لزيارة البقاع المقدسة، والمقام الكريم، كما تضمنت احتفاء بمولد الرسول صلى الله عليه وسلم، وتبركا بآثاره الشريفة.
- غزارة الإنتاج المغربي رغم أسبقية المشاركة في هذا الفن ويعود ذلك إلى أن المغاربة منذ القدم كانوا متحمسين لهذا النوع الجديد الوافد إليهم من المشرق فكانت نتيجة ذلك كثرة المعارضات.

- حافظ معظم الشعراء على قالب التقليدي للقصيدة العربية، وخرج بعضهم إلى أبنية أخرى كالموشح والتشطير والتخميس.
- استعمل شعراء المديح النبوي في هذا العصر لغة بسيطة ذات معان عميقة قريبة إلى اللغة العامية عندهم.
- إن شعراء المديح النبوي في هذه الفترة قد أدركوا أهمية التكرار في بناء القصيدة ومدى تأثيرها على المتلقي، وأهميته في توضيح المعنى وتأكيد، لذلك أكثروا من تكرار الأفكار والعبارات، كما نوعوا في الأساليب مما زاد في عمق المعنى وتجليه
- إن شعراء المديح النبوي في هذه الحقبة قد أدركوا أن الشعر فن تصويري لا تقريري لذلك عمدوا إلى توظيف الصور الشعرية بمختلف أنواعها بغية تجسيد ميلهم الروحي لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم.
- كما أن الشعراء في هذه الفترة لم يخرجوا عن تقاليد القصيدة العربية المعروفة وهذا فيما يخص البنية الإيقاعية، فمن حيث الوزن والقافية كانت أكبر نسبة استعمال للبحور الطويلة خاصة البسيط والطويل، أما القافية فكان اعتماد الشعراء للقافية المطلقة خاصة، في حين استعمالهم للقافية المقيدة قليل نسبياً.
- أما من حيث الموسيقى الداخلية فقد حرص شعراء المديح النبوي في هذه الفترة على توظيف التجنيس والتصريح والتصريح والطباق، وهذا من أجل إضفاء حس نغمي موسيقي جميل على أشعارهم يتناسب مع المعنى المراد تحقيقه.

القرآن الكريم

1. الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1973م، ج4، ج2، ج3.
2. الأدب الصوفي في نهاية القرن الرابع الهجري، علي صبح، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر، د.ط، 1995م .
3. أدبيات المدائح النبوية ، محمود علي مكي، الشركة المصرية العالمية للنشر ، لوبنجان دار نوبار للطباعة، شبرا، القاهرة ، ط1، 1991م.
4. أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض للمفري التلمساني ، مطبعة لجنة التأليف والترجم والنشر، القاهرة، د.ط ، 1940م ، ج3، ج2، ج4.
5. أساس البلاغة للزمخشري ، دار صادر بيروت، د.ط ، 1965م ، مادة مدح.
6. أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد الفاضلي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1998م.
7. الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، ط1، 1976م.
8. الأعلام لخير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، ط15، د.ت، ج2، ج4.
9. أمراء الشعر الأندلسي ، عيسى خليل محسن ، جريد للنشر والتوزيع ، عمان ، ط1، 2007م.
10. البلاغة الواضحة، علي الجارم، ومصطفى أمين، دار المعارف، الكويت، ط2، 1999م.
11. البيان والتبيين، للاحاظ ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر ، ط5، ج3.
12. تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، راجعها شوقي ضيف، دار الهلال، د ط، ج3.
13. تاريخ الأدب الأندلسي، أحمد زكريا عناني، دار المعارف الجامعية، مصر، د.ط، 1999م.
14. تاريخ الأدب الجزائري، محمد الطمار، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، د ط، 2007م.
15. تاريخ الأدب في المغرب العربي، لحنا الفاخوري، دار الجيل بيروت ، ط1، 1417هـ ، 1996م.

قائمة المصادر والمراجع

16. تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، دار المعارف، القاهرة، ط1، د ت.
17. تاريخ الأدب العربي في المغرب والأندلس، عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط2، 1984م، ج5.
18. تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، دار المعارف، مصر، ط3، 1995م، ج5.
19. السجريد الصريخ لأحاديث الجامع الصحيح، زيد الدين الزبيدي، دار النفائس، بيروت، ط1، 1995م.
20. التصوير الفني في القرآن الكريم، السيد قطب، بيروت، د ط، 1986م.
21. جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، السيد أحمد الهاشمي، تحقيق حسن حمد، دار الجليل، بيروت، د ط، د.ت.
22. حركة الإيقاع في الشعر المعاصر، الحسين الغربي، إفريقيا الشرق، المغرب، د.ط، 2001م.
23. الحلة السيرة لابن الأبار، الدكتور حسن مؤنس، دار المعارف بمصر، ط2، 1985م، ج1.
24. خصائص الخطاب الشعري في ديوان أبي فراس الحمداني، محمد لثراكي، دار هومة الجزائر، د.ط.
25. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1992م.
26. دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلوا المصرية، ط5، 1984م.
27. دراسات في علم المعاني، عبد الواحد حسن الشيخ، مكتبة الإشعاع، مصر، د ط، 2000م.
28. الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، عبد الله علي علام، دار المعارف مصر، القاهرة، د.ط، 1971م.
29. ديوان ابن الأبطو قراءة وتعليق عبد السلام الهراس، المملكة المغربية، وزارة الأوقاف، د.ط، 1999م.
30. ديوان ابن الجنان، تحقيق منجد مصطفى بهجت، مطابع التعليم العالي، بغداد، د ط، 1980م.
31. ديوان ابن سهل الأندلسي قدم له الدكتور إحسان عباس، دار صادر بيروت، د.ط، 1400هـ، 1980م.

قائمة المصادر والمراجع

32. ديوان الأبيوردي، محمد بن أحمد، تحقيق عمر الأسعد، دمشق، 1394هـ، 1974م.
33. ديوان الأعشى ميمون ابن قيس، شرحه مهدي محمد ناصر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2002م.
34. ديوان بحتري الأندلس لأبي بكر يحيى بن مجبر الموحدى، جمعه، يوسف عيد، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، سنة 2002م.
35. ديوان حازم القرطاجني، تحقيق عثمان الكعك، بيروت، د ط، 1964م.
36. ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، شرحه عبد أ. مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1994م.
37. ديوان دريد بن الصمة، تحقيق عمر عبد الرسول، دار المعارف، القاهرة، د.ط، 1980م.
38. ديوان كعب بن زهير، صنعه الحسن بن الحسين العسكري، قدم له حنا نصر الحى، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1414هـ/1994م.
39. ديوان مهيار الديلمي، تحقيق أحمد نسيم، دار الجيل بيروت، ط1، 1986م.
40. ديوان الوسائل المتقبلة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم لأبي زيد الفازازي، المطبعة الميمنية، د.ط، د.ت.
41. الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة لمحمد بن عبد الملك المراكشي، تحقيق، إحسان عباس ومحمد بن شريفة، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2012م، ج1، ج2، ج3، ج5.
42. شدرات الذهب في أخبار ذهب، ابن العماد الحنبلي، دار المسيرة، بيروت، د.ط، د.ت، ج3، ج4.
43. الشعر الأندلسي في عصر الموحدين لفوزي عيسى، دار الوفاء الإسكندرية، ط1، 2007م.
44. الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، محمد مجيد السعيد، دار الراية للنشر والتوزيع، عمان، ط3، سنة 1429هـ - 2008م.

قائمة المصادر والمراجع

45. الشعر العربي المعاصر، عز الدين إسماعيل، دار الكتب العربي، للطباعة والنشر، القاهرة، د.ط، 1967م.
46. الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها لأحمد بن فارس الرازي، تحقيق عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت، ط1، 1993م.
47. الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، جابر عصفور، دار المعارف، مصر، د.ط، 1980م.
48. طبقات فحول الشعراء، لمحمد بن سلام الجمحي، تحقيق محمود محمد شاكر، القاهرة، د.ط، 1394هـ/1974م، السفر الأول.
49. الطريق المعبد إلى علمي الخليل بن أحمد، العروض والقافية، عبد الحميد السيد محمد، مكتبة الكليات الأزهرية، الأزهر، القاهرة، د.ط.
50. عصر الدول والإمارات، مصر، لأحمد شوقي، دار المعارف، القاهرة، ط2، د.ت، ج7.
51. علم العروض والقافية، عبد العزيز عتيق، دار الآفاق العربية، القاهرة، د.ط، 2004م.
52. علم العروض والقوافي، حميد آدم تويني، دار صفاء، عمان، ط1، 2004م.
53. علم اللغة العام للأصوات، كمال بشير، دار المعارف، مصر، د.ط، 1987م.
54. علم المعاني، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، مصر، د.ط، 1985م.
55. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، دار الجيل للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، ج1، ج2.
56. فوات الوفيات لابن شاعر الكتبي، تحقيق إحسان عباس، بيروت، د.ط، 1973م، ج4، ج11.
57. قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، دار العلم للملايين، ط5، 1978م.
58. قضايا النقد الأدبي والبلاغة، محمد زكي العشماوي، الإسكندرية، د.ط، 1967م.
59. اللزوميات، للمعري، عمر أبو النصر، دار الجيل، بيروت، د.ط، 1969م.
60. لسان العرب لابن منظور، دار صادر بيروت، د.ط، 1956م، ج2، مادة مدح.

قائمة المصادر والمراجع

61. المجموعة النبهاية في المدائح النبوية، يوسف النبهايني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1417هـ، 1996م، ج1.
62. محاضرات في البلاغة العربية "البيان والبديع"، جمال شوالب، مكتبة إقرأ، قسنطينة، ط1، د.ت.
63. المدائح النبوية حتى العصر المملوكي، محمود سالم محمد، دار الفكر، دمشق، ط1، 1417هـ.
64. المدائح النبوية في الأدب العربي، زكي مبارك، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د.ت.
65. مدخل إلى الأدب الأندلسي، يوسف طويل، دار الفكر اللبني، بيروت، ط1، 1991م.
66. المرشد إل فهم أشعار العرب وصناعتها، عبد الله الطيب، دار الآثار الإسلامية، الكويت، ط3، 1989م، ج1.
67. المستظرف من كل فن مستظرف، شهاب الدين محمد بن أحمد الإشيبي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ، 2001، ج1.
68. معجم الأدباء لياقوت الحموي، تحقيق مرجليوت، دار إحياء التراث العربي، طبعة أخيرة، د.ت، ج7.
69. معجم علوم البلاغة، البيان البديع المعاني، فولل عكاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1995م.
70. المعجم المفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر، إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1991م.
71. المغرب في حلى المغرب لابن سعيد المغربي. حققه وعلق عليه شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط2، د.ت، ج1.
72. المقتضب من كتاب تحفة القادم، لابن الأبار، تحقيق إبراهيم الأبياري، المطبعة الأميرية بالقاهرة، د.ت، د.ت.
73. الموجز في الأدب العربي وتاريخه، حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، ط3، 2003م، ج3.

قائمة المصادر والمراجع

74. النبوغ المغربي في الأدب العربي لعبد الله كنون، دن ، ط2، د.ت ، ج1.
75. نظرات في التراث اللغوي العربي، عبد القادر المهيري، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1993م.
76. نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب أحمد بن محمد المقردي التلمساني، تحقيق يوسف البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1998م، جج1، ج2، ج4، ج5، ج7.
77. النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، نهضة مصر للطباعة والنشر، مصر، د.ط ، 2004م.
78. الوافي بالوفيات، للصفدي ، تحقيق مجموعة دار فرانز شتاينر، المعهد الألماني للدراسات الشرقية ، بيروت، د.ط ، 1980م، ج4.
79. الوافي بالأدب في المغرب الأقصى، محمد بن تاويت، الدار البيضاء، ط1، 1402هـ، ج1.
80. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان، حققه إحسان عباس، دار صادر بيروت، د.ط، د.ت، ج8.
81. الوفيات لأبي العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، د.ط، 1982م.

❖ الرسائل الأكاديمية:

1. قصيدة المديح النبوي بالمغرب الأوسط في القرنين الثامن والتاسع الهجريين، صونيا بوعبد الله، رسالة ماجستير
2. المجموعة النبهانية في المدائح النبوية – دراسة أسلوبية- عبد القادر البار، رسالة دكتوراه.

❖ المجالات:

1. شعر المديح النبوي في الأدب العربي، جميل حمداوي ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا، بيروت، ط1، 2007م.

البسلة
شكر وتقدير
إهداء
المقدمة
المدخل: الحركة الشعرية في عصر الموحدين الصفحة: 0
الفصل الأول:
شعر المديح النبوي مفهومه، نشأته، موضوعاته الصفحة: 08
المبحث الأول:
مفهوم المديح النبوي الصفحة: 09
المبحث الثاني:
نشأة المديح النبوي وتطوره الصفحة: 11
المبحث الثالث:
موضوعات المديح النبوي الصفحة: 25
الفصل الثاني:
الخصائص الفنية لشعر المديح النبوي في عصر الموحدين الصفحة: 29
المبحث الأول:
اللغة الصفحة: 30
المبحث الثاني:
الصورة الشعرية الصفحة: 40
المبحث الثالث:
البنية الإيقاعية الصفحة: 48
الخاتمة الصفحة: 61
قائمة المصادر والمراجع الصفحة: 64
الفهرس الصفحة: 71
الملخص

يهدف هذا البحث إلى إعطاء تصور بسيط عن شعر المديح النبوي ذلك الشعر الذي يتوجه بالمدح إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فيحدد صفاته ومناقبه ويشيد كل ما يتعلق به عليه الصلاة والسلام، وقد أشرقت في هذه الدراسة إلى أن المديح النبوي موضوع قديم متجدد، له جذور تعود إلى ما قبل البعثة أرسبها قواعده في صدر الإيماء مع حسان بن ثابت، وكعب بن زهير، ثم توالى المنظومات في هذا الغرض، معتزلة بأغراض أخرى، حتى جاء عصر الموحدين فعرف هذا الغرض ميلاداً جديداً، خاصة على يد الشعراء المغاربة، الذين أحدثوا له قوالب جديدة، وتنوعت موضوعاته، فأكثر الشعراء فيه النظم، وقد تحيروا من الألفاظ أبغما ومن الأساليب أجملما فجاءت قائلهم كثيرة الصور عذبة الموسيقى

الكلمات المفتاحية شعر - المديح النبوي - المغرب العربي - عصر الموحدين

Résumer

Cette recherche tend de donnée une semple conception de l'art el madih el nabaoui cette poésie qui vent les qualités du prophète.

Cette étude indique que cet art puisse ces racines dans l'antiquité avant même l'envoi du prophète et ce fut hassane mbn tabite qui en posa les jalons au début de l'islam. Ensuite les poèmes ce succèdent jusqu'à époque des moihidine ou ce gens a connu une nouvelle naissance un brait avec les poètes moihidine qui lui ont crée d'autre thèmes et ils ont choisir minutieusement la terminologie et le stylistique adéquate.

Les mots clé : Poésie- el madih el nabaoui- el Maghreb el Arabie- époque des moihidine

Summary :

This research tends to semple given a conception of art el nabawi el madih this poetry wind qualities of the prophet.

This study indicates that this art can these roots in antiquity before sending the prophet and i twas hassane mbn tabite who laid the groundwork in early islam. Then the poems that followed until time of moihidine or what people experienced a novella birth brays with moihidine poets who created him other subjects and they carefully chose the terminology and stylistic adequate.

The key word: Poetry – el madih el nabaoui – el maghrib el arabinoxylans era moihidine.

الحفظ والحفظ

المدخل

الحركة الشعرية في عصر الموحدين

الفصل الثاني
الخصائص الفنية لشعر المهدي
النبوي في عصر الموحدين

الفصل الأول

شعر المديح النبوي مفهومه، نشأته، موضوعاته

الغناظير

قائمة المصادر والمراجع

الفصل الرابع